

أبكار السقاف
الدين
في الهند والصين وإيران
www.e-kutub.com
مجموعة إي-كتب المجانية

نحو آفاق أوسع

(٤)

الدين
فى الهند والصين وإيران

أبكار السقاف

العصور الجديدة

الديـــن في الهـــند

الدين على هذه السفوح ، الشامخة القمم الهاوية الأودية المنبسطة السهول المُتضوِّعة الأرجاء بأريج الإرهاف، تاريخ سجّله العقل الإنساني بعنصرين مختلفين ...

استهل التسجيل بذلك الفرع الذي انسلخ ، في ليل ما قبل الألف الخامس ق . م ، عن دوحته القاطنة أواسط آسيا ، وهبوط فرع منه الجنوب من الفرات ، هبط هو الأعالي من الأندوس ناشرًا على ضفتيه وفي أوديته حضارة زهت بألوان تطل علينا من أطلال وخرائب «هارابا » وفي تلك الديار التي عجّت به حيًا وعليه أضحت علَمًا ميتًا ، دار الموتى «موهانجادارو» حيث تطالعنا غير باهتة منها الألوان لنستخلص أن امتداد الحضارة السامرية الأولى امتدت هذه الحضارة الأولى التي أتت فيما قبل الفتح الآري ونعرفها في سجل التاريخ تحت اسم «الدارفيدية»...

وَوَاصَلَ العقل الإنساني التسجيل بذلك الفرع الممتد من الدوحة المتصفة بالإعراق بين فروع كانت تمتدّ بين البقاع الواقعة من الراين إلى قزوين ، حيث انتشرت قبائل يطويها من جنح التاريخ طوايا الغابات

الإلهي أن « الواحد » ، ليكون الكون ، بنفسه قد ضحى! وعلى الإنسان بدوره للذي بنفسه قد ضحّى، يُضَحى. من ثمَّ قيامه يقدّم القرابين ويقيم، على هذه الأسس ، الطقوس الدينية ، التي بسببها تمتد شيئًا فشيئًا يد الكهنوت حتى تقوى قبضته فتقبض على الحكم السياسي وتُخضع لها الدنيا بوسيلة الدين !

أجل ... منذ انتشر على هذه السفوح للآرية مجتمع بدأت الأزمان تطويه ، انتشر العقل الإنساني ومن ظلمة التاريخ طلع يتعهد لهذا المجتمع دين به معه كان قد أتى في صورة الأناشيد من تسابيح وتراتيل وأوراد وقيم أخلاقية في صيغ الكتابة إلاّ وسجلته شريعة في ذلك السجل الذي ألحقت به سجلاّت له تشرح ، والذي كان يسير به عهد ودين باسمه طيلة القرون التي راحت عنه له مسطرًا ، من القرن الخامس عشر حتى القرن العاشر ق م ، حتى جمعه وإليه أضاف السجِّلات الأخرى الثلاثة يُصفِّح بالتنزيل صفحاتها ، ويُحوّل فقراتها إلى آي ... صحف ، بأوراقها يهوِّم الوحي ، ناولهاالمجتمع تناولها صحفًا باللغة الفصحى قد كتبت ، فغلفها من العقل الجماعيِّ دويّ ، بسببه تحدّرت منذ ذاك العهد حتى هذا العهدِ « كتابًا مقدسًا » من معاني اسمه معنى الإفادة : الـ « فيدا » « كتاب مقدّس » الفيدا به يطالعنا :

الدين الفادي والتفكير الديني في العصر الفادي

لما يضم هذا « الكتاب » من مجموعات أربع وردت فيها تباعا ، الأوراد التعبدية والأناشيد الدينية من التسابيح الكهنوتية ، فتعاليم تلاوة الآي فطقوس الضحايا والقرابين ، فالتعاويذ السحرية ، وكل منها إلى أقسام ينقسم ، ننشر ونستعرض خطوات العقل البشري في مراحله

وتطوينا من ليالي العصر الفادي ليال في هدأتها نصغي إلى ما يضمه هذا الكتاب من تسابيح ، تربو على الألف بثماني وعشرين أنشودة ، كترجيع من هذه الشفاه الكهنوتية تطلقها في العراء ، لا حول بيت ، إنما حول نار فيه تُلْقيَ الضحايا وترسل القرابين محرقات ...

كهنوت ، منه مستطلعين نقترب فيحدثنا عن ماض له في هذا العنصر الذي في مجتمعه المنتشر الآن على هذه السفوح يقف ينتظم إلى جانب دينه الشخصي له دينًا ، فحتى الآن لم تمتد للكهنوت على المجتمع السيطرة التي ستكون له من بعد عن طريق الطقوس ...

مازال الكهنوت في هذا المجتمع ، المستهل الانتشار ، يعيش لشئونه الروحية يتعهد وليس له من صفة إلاَّ ما لكل فرد في طبقته الروحية التي تقف في المرتبة الثانية بعد الطبقة المحاربة ولكن كما تسير الأيام بهذا المجتمع الجديد ، من حوالي القرن السابع عشر ق . م مقتربة من القرن الخامس عشر ، وتشتد حاجته إلى توطيد سيادته على العنصر الأصلي لأهل البلاد ويجد أن ليس من وسيلة سوى إدماج الدين المسود في الدين السائد ، نراه يخطو خطوة يبدأ بها بروزه على التاريخ فهو يتناول مجتمعه الجديد ويضم إليه أهل المجتمع القديم عن طريق إدماج الدين المسود في الدين السائد بوحدة دينية فبلغ وحدة سياسية كانت الهدف الذي ظل إليه يسعى مدى قرنين من الزمن !

وبهذه الوحدة التي بدأ بها للهند عهد جديد لمرحلة جديدة في السياسة وفي الدين بدأ العقل الإنساني بهذا العنصر الآرى يُسجِّل في سِجل الأديان دينًا به يطالعنا تفكير كل الجدة جديد ...

أجل ... منذ أشرق بالعنصر الآري شرقي البينجاب وعلى السفوح

الفادي، من حوالي ١٥٠٠ - إلى ٨٠٠ ق م ، ومن هذا الكتاب نستوحي عقيدة العقل الإنساني يافعًا عن الصرح الذي يقوم في أرجائه الدين ...

على صفحات « الريجفادا » مختلط في غير خلْط تاريخ الإلهيات وعليها مزيج مسطَّرة بسير من كانوا لحاضر تاريخه السياسي من السلف البعيد بُناة - بُناة إلى مرتبة الربوبية رفع بعض ولهم بالقدسية حفّ لنرى على صفحة الذهن الجماعي قد حُفِرت صورة من يقف من بناة الماضي في الحاضر الأشدّ ، رجل الحرب :

« إندرا »

كالعاصفة يقف في الأفق الإلهي « إندرا » عاصفًا لا يصل إلى مستواه من إلى مستوى الربوبية سواه قد رُفع ...كلّ من سواه روح مبهمة مجردة لا تحصرها جسمية وإن حدّها المكان، كاليوم في فجره وغسقه ، وكالنهار في شمسه ، وكالليل في قمره ، وكالفضاء في ريحه - وكوليد الحرارة في لهبه !

أجل ... تعدّدت على هذه السفوح أمام العقل البشري في آفاقها للطبيعة مظاهر وظواهر فتعدّدت الأرواح ، وبتعدّدها تَعددتْ القوى الكونية، وجرت يده تسجل في «الريجفادا» لهذه القوَى الطبيعية أسماء..

جرت ، والفجر في أفق الشروق مُتفجِّر ، فسطرت : «أوشاس» وإلى «سيدة الفجر » اتجّه يرسل الأناشيد لها تحية ... بيد أن هذه الأناشيد لا تتجاوز دائرة الأدب المستجيب لضغط المؤثرات الغريزية ، فـ « أوشاس » قطُّ لا تقف في مخيِّلته ربة بمعنى الكلمة وإنما تحت صفة أدنى من ذلك بكثير في قاموس الأخلاق !

أجل .. هناك قصص عن أوشاس قُصّت ، وإلى جانب هذه

العقل الإنساني به ، كاهنًا وساحرًا في مجتمعه الجديد ، إلاّ كأساس يقوم عليه بناء دينه القديم القائم، كسائر أديان العصور البرونزية ، على الضحية والقربان التي يلقيها في النار - فلا اهتمامه بأجنى ولا تغنِّيه له بهذه الأناشيد التي تربو عددًا على المائتين إلاّ لأنه يرى في النار رمزًا لمقامه على الأرض وصورة من نفسه معكوسة وروحًا تُمثِّله ، فأجْنى إنما « الكاهن الأقدس » الحامل ، على أجنحة لهبه ، الضحية والقربان إلى مَنْ في السماء !

أجل ... عن صفة الألوهة صفة « أجنى » قصيةٌ فمرتبته إنما تقف في مرتبة تساويها - أو تكاد - مرتبة ذلك الرحيق الذي ، حَمْلُ « أجنى » القرابين والضحايا إلى العالم الإلهي ، يحمله هو الكاهن إلى هذا العالم الإلهي .. ذاك الذي كان على الكاهن حتمًا ، إذا ما أشرق في أفق الشروق القمر بدرًا واختلطت همهمة « أجنى » بحفيف « فابو» وأن آن الصلاة وقام في حلقات الذكْر ينتظم الدوائر ، نَهْل جرعات مِمَّن بالخيال سُموًا يسمو :

«سوما» ، على «سوما» ألقت المخيلة الكهنوتيّة ما جعل تناول الخمر من التقاليد الدينية تقليدًا متبعًا لتأثير له عَبَّرت عنه بالنشوة الروحية فتغنت به شرابًا طهورًا ، رحيقًا إلى الملكوت الأعلى يحمل على أجنحته العُبَّد !

لـ « سوما » صاغت المخيلة الكهنوتية المحامد والتسابيح وبقواه الصوفية انطلق لسانها الشعري « فاديا » مادحًا له لعلل الجسد والنفس شافيًا ، ومرسلاً تغنيه في مسامع مجتمع حربي حصر اهتمامه وتفكيره سيرة البطل الشعبي أندرا ، يُحدِّث به شرابًا جرى في أوصال إندرا وبتأثيره صال إندرا وأصلي !

القوانين الأخلاقية وسحق الشرّ في أية صورة من صوره ، ومن ثم كانت لعبادتهما صيغ والتزامات وتكاليف بلغت بها الهند أعلى مثال للروحية لقرون من الزمن ، وأساسًا صالحًا كانا للناحية الصوفية فيها في عهد نضوجها الفكري من بعد ...

ولكن ... بينما تشبّث التفكير الآريّ بوحدتهما على الهضبة الإيرانية حيث سنجدهما هناك ، فإنه هنا بينهما قد فصلت يده اللاهوتية فأقامت فارونا لحكم الليل ، وأقامت مترا لحكم النهار ، وبهذا الفصل بدأ في سجلّ الزمن تلاشيهما فقد أصبح لفارونا ، باتحاده بالليل ، اسمُ صاحب الظلمة وذِكْر نفسه لأشباح الظلمة تذكير وتحت هذا الشعور أصبح لا يُذكر إلاّ ليُرْهِب ، وبالتالي غدا اسمه صفة للنقمة والانتقام – وبدافع هذا الشعور دفعت عنها المخيلة الهندية فارونا ليبرز « مترا » في تيّار التزاحم الكهنوتي والمذاهب المتضادة حتى أصبح اسمه، ، صلته بحكم النهار ، يعني معنى آخر السُريْا أو الشمس .

كلا ! ... لم يبلغ على هذه السفوح « مترا » سمت الألوهة ففي مجرى النمو قد وقف موّحدًا بظاهرة النهار ، بل إن كما في مسير الأيام تلاشى « فارونا » في ظلمة الليل، بهت ««مترا » في ضوء النهار !

أجل ... كل فأرباب حملها من العنصر الآريّ القلب من موطنه الأول إلى هنا ، إلى حيث وَجَد لونا من الألوهة عليه غريب إليه يجد قد اتجه من لاهوته نواح اجتذبها إليه ما أقد أفرغ فيه العنصر الأول من أهل البلاد من صفات القُدرة ، بإلقائه في يديه مقاليد الأمر .. وَجَد رباً لتغنيه باسمه رنين ، فربّ هو بيده للضّار الضرّ ، فإنه للضار : «رُدْرَا » والضار للضار إنما بيده التشفيٍ .. ومن ثمَّ فهو ، كما بيده التشفيّ ، أيضًا بيده الشفا :

« ماتا »

وليأتي من القديم أيضًا ، ولديه ما قد أدلفه إليه بديهيٌّ منطق لاحظ به أن الأرض لا تنبت الحياة ما لم ينزل من السماء الماء ، بأن «ماتا» هى الأرض فالسماء إنما الأب أو :

« بيتار » !

بيد أن وإن صاحبت ذاكرة العقل الإنساني ، منذ عهود يغيب عن الذاكرة ذكراها ذكرى عبادته السماء وإطلاقه عليها تحت هذه الصفة نعتًا « ديوش » أو هذا الاسم الذي به أقبل بفروعه الآرية من موطنه الأول بامتدادها إلى هنا امتداد فروع أخرى من نفس الدوحة باسم الإغريق حاملة نفس المعنى بزيوس ، وأيضًا امتداد فروع أخرى من نفس الدوحة باسم اللاتينيين حاملة نفس المعنى بأيوبيتر أو جوبتر ، فإنه الآن لا يجد نفسه على هذه السفوح اتجاهه القديم نحو الأب السماء أو السماء الأب يتجه وإنما يرى نفسه قد تحوّل به المنطق وهو عن سبب الأشياء يبحث إلى ، والأب السماء للحياة هو المبدأ ، أن هذا عين ما عنه من سبب يبحث فإنما واضح أن ببتار إنما : « ديوش » !

ورنّت لأول مرة على هذه السفوح الأوتار الصوتية تعلن أن سمت الألوهة قد بلغه « بيتار» بيد أن بهذه اللحظة الفاصلة في تاريخ التفكير الإلهي على هذه السفوح قد تحولت بالعقل الإنساني المخيلة التي تخيّل الإله في صورة جسدية له من العناصر الجنسية عنصر الرجل – وبتخيله هذا التخيل تخيل السماء له مكانًا !

أجل ... وبهذه اللحظة الفاصلة التي صُورت فيها السماء مكانًا وصُور « بيتار » رجلاً ، تحوّل الأب السماء إلى الأب الذى في السماء وطلع « بيتار » في الأفق الإلهي الأب السماوي :

الروحيات وبنشوة من الروح المرهف جرت يده ، وهي على الريجفادا مازالت تجري ، فسجلت اللمحة لحظة لاحظ أن لابدّ أن يكون « الأول » «مبدأ قدسيًا» وعنصرًا مجرّدا وأنه روح أقدس .

« بوروشا »

مبدأ أوليٌّ، من اللامجردات مجردًا.. مبدأ ، جعله مجردًا وخلع عليه من صفاته البشرية صفات فوصفه بالبذل وبالتضحية وإنشائه وجودًا ، أشياءه أو مادته – «براكرتي» تتحرك بفعل « بوروشا » أو نفس!

« كان بوروشا واحداً فأراد الخروج من الوحدة فضَحى بنفسه ونُثرت أجزاؤه ومن هذه الأجزاء، التي ليست شيئًا آخر سوى أجزاء الإله، كان الكون وتكوّن الوجود ! »

(٩٠ – =) من الريجفادا

في طمي الزمن ألقى العقل : «عقيدة وحدة الوجود » بهذا التفسير جعل العقل كلُ ما في الوجود أجزاء من ذلك « الكلٌ » – وبقوله هذا القول جعل الوجود وحدة بـ «واحد » إليه أعاد إيجاد الكون بمكوناته من أشياء وكائنات ، بل وسائر الأرباب ، فإن هذه القوى التي إليها تتجه أناشيده وأوراده إنما بأسباب وجودها أيضًا إلى تلك الوحدة ، التي ضحَت بنفسها ، تعود !

ولكن ... لمبدأ أولي مجرّد ، لماحًا وللمحة ، استخلص العقل الإنساني وعهود الفادية تطويه وقال بـ « بوروشا » كأصل لوجود فسر مظاهره وظواهره تفسيرًا به وصف الألوهة بالتجرّدية ووصفها ، بإعادته بالكون بأربابه وكائناته الحيَّة إليه ، بالوحدة والوحدانية – ووصفها، بإخراجها من الوحدة عن طريق التضحية بنفسها ، بصفة البذل

الأبوة ... بل إلى القلب الحربى، في مجتمع روحه الحرب ، طريقه مُوصد ، فغير شاغر هذا القلب قد غدا فناصيته قد امتلك ذلك الصنديد من باسمه تتغنّى للفادية الأجيال .. رجل الحرب ؛ « إنْدرا » !

إن الزمن المتغيِّر قد تغيَّر وبتغيره تغيَّر « إندرا » ! ـ تغير من ماض مضى به صنديدًا إلى حاضر نرى صورته على قماش المخيِّلة الفادية قد حفها إطار من القدسية صاغة البُعد !

إن ذكرى العمل المُصْطَلح عليه من جليل الأعمال يعيش في القلب الجماعي ... والقلب الجماعي أبدًا مرآة للماضي يعكسه في تجسيم في صورة الغريب واللامعقول من القصص واللامنطقي من الأساطير ... وعلى أجنحة هذه الأساطير ، بل بها ، عاش في هذه الناحية من المجتمع الفادي كرجل حرب « إندرا » ...

أجل ... في مجتمع روحه الحرب عُبد « رجل الحرب » وللإيمان الشعبي تجلّى شيئًا حيًا – قوة جماعية أبت على العقل الإنساني ، حدثًا تحت رداء من السحر والكهنوت مازال ، إلا تعهد هذا الإيمان ورعايته ، وإلا الاقتناع بأنه قد لمس ما عنه يبحث فإن ما عنه يبحث إنما إليه يأتي بصوت هذا المجتمع ومن ثم يروح الصوت الكهنوتي صدى يعلن على السفوح ألوهة «إندرا» !

ورجّعت السفوح الهندية ؛ إندرا ، هو الآله فإنه هو الذي انتظم الوجود ! أين «ديوش – بيتا» أين الأب السماوي ؟

غير عاجزة امتدت اليد الكهنوتية وفي « الريجفادا » صاغت النسَب حلقةً تمهِّد بها طريقًا يصلها اتخذه منطقها اللاهوتي وسيلة إلى الغاية التي رسمتها لإحلال « إندرا » على عرش الألوهة – جعلت «إندرا»

عليها اليد الكهنوتية صبغة القدسية ، آلها فقد سطرت هذه اليد المرنة هذه التسبيحة التي نقرؤها في الـ « ريجفادا » كقصة تُحدِّث :

« أن قـــبل أن يولد إندرا ، أدرك أبوه ، أن إندرا ســـيـــسلبـــه اختصاصاته وسيادته على الأرباب فحاول جهده لمنع ولادته .... ولكن ، القـوي إندرا اخـترق جنـب أمـه « أديتي» وخرج إلى الوجـود – شـرب « السوما » التي بها أضحت له القوى الإلهية وقتل أباه ! »

IV, XV , III من «الريجفادا»

أما إذا فطن عقل لفداحة الجرم وسأل شاكّ أقتل الإله : أباه ؟ !

فهناك ، لردٍّ إيمانه للدين ، قصة وإن تكن مناقضة للأولى تقول : « إن إندرا كان سجينًا .. خشى بطشه فسجنته الأرباب ولكنّه فرّ على ظهر نسر ! »

LV.XX VLLL من « الريجفادا »

أما إذا تنبّه الباحث للتناقض وسأل : ولكن كيف استطاع إندرا ، وليدًا ، قتل أبيه ؟ غير عسير التخلُّص من حرج السؤال فالجواب يأتي : أن قبل أن يُولد ، خشيته الأرباب . فقيّدته جنينًا بالأصفاد ولكن عليها تغلّب إندرا فاستطاع أن يفرّ ، فقوي ! إن لرجل الحرب إندرا من المعجزات الكثير ! على الأرباب تغلّب ولأمره خضعت الأرباب بل وامتدت قوته على الزمن فقد تحكّم في مد الليل وإطالة الأيام فإنه هو من إليه ترتفع هذه التسبيحة :

ليس على الأرباب فقط ، أي إندرا ، تغلّبت ! وإنما على الكون حين أطلت الأيام إلى ليال ! » .

LV.XXX.LLL من « الريجفادا»

ترهات في صور قصص دينية تداولتها علي هذه السفوح شفاه بالإيمان قلبها قد عمر لا يتطرق إليها في حقيقتها شك ليطلع بها على التاريخ إندرا إلهًا يسود على أجيال للفادية جنح خلالها لشعرائها خيال حفٌ بعرشه يشيد به مشيد السماء ، باسط الأرض ، مسيِّرٍ الريح إلى حيث يشاء وقاذف الصواعق علَى من يشاء !

غاب إندرا القصة وطلع إندرا الأسطورة... طلع إندرا إلهًا مكانه السموات ومقامه فيها عرش عليه قد استوى... وتسبيح مَن في الأرض باسمه يُسبِّح باسمه من في السموات حتى « فشنو » ! .. حتى حبيب الكهنوت والممثِل لروح القربان رهين خدمته يقف يقدّم مرفوع القرابين!...

بهذه الألوان يبدأ يطالعنا دين جماعي في هذا المجتمع الذي تنتظمه ولمعتقداته تتعهّد شئون يد الكهنوت فعلى الكهنوت وحده يقف أمر اللاهوت ومعرفة الإلهيات ووصل الصلة بين عالم مادة وعالم روح ... وإليه يهرع المجتمع ، فردًا وجماعة ، إذا أراد تقربًا ، يؤدي طقوسًا تقف في قمتها هذه الكلمة « براهما » التي يصاحب المجتمع عنها العقيدة بأنها لا كما يفهمها الكهنوت الصورة اللفظية للروح الكونية وإنما الكلمة السحرية الفعالة في الكون والسر الرابط بقوته بين الكهنوت أو البراهمة وعالم الأرباب .. كأن الأقدار بخيوط معلقة تحركها بهذه «الكلمة » من الكهنوت الشفاه ! ...

وإلى الكهنوت واصل الخلف سعي السلف ، وإليه ، كما لأسلافه قدّم ، قام يُقدم لقاء ، وصل الصلة ، الأجر المادي المعلوم ...

إرث غدا في يد الكهنوت وصل الصلة بين الإنسان والرب ... ووصل الصلة بين الرب والإنسان تنحصر في :

مشكلة الخير والشرّ

تُعلن الريجفادا أن الوجود إنما الخير لا شر فيه ، فلا شر يقع إلا : من الخطأ في صور الطقوس !

إن القوى الإلهية تطلب تقدمة ما قد حدّده الكهنوت من تقدمات من لحم وخمر وفطير ترْفع محرقات ... متى فعلت هذا خلصت من الشر حياتك وكانت كلها الخير ... أما إذا بشرّ أصبت وأنت على الطقوس مواظب ولها مؤد فاعلم : أن في قلبك من الإيمان زيغًا ونقصًا في فروض الطقوس !

هذه هي مشكلة الخير والشر في الدين الفادي !

إلى الوجود لم ينظر العقل الإنساني غضون العهد الفادي نظرة تفاؤلية فهو لم ينف للشر وجودًا وإنما قيّد الجماعة بقيد الطقوس !

لإندرا ، مرسل الغيث ، أرسل المحرقات حتى تُمكنه لإرسال الغيث إليك ... إنه للخراف والثيران والفطير والخمر ، محبّ !

أرِقْ لإندرا الخمر واشربه باسمه نخبًا ، وحَمّل لهب « أجنى » إليه اللحم ، فسيحملها إلى « فشنو » القائم في السماء مقام الكهنوت على الأرض يقّدم مرفوع التقدمات للقوي ذي البطش الشديد، الرافع السماء، الباسط الأرض ، المستوى على العرش !

من ثمّ فإلى « فشنو » لترفع التقدمات فإن القوى إنذرا غير قوي إلا بقوة إنذرا غير قوى إلا بقوة فشنو الشاب الخيِّر العملاق !

وهنا ... هنا نرى أن من الكهنوت تمتد اليد فتجري تُسطّر في الـ «ريجفادا» سطورًا تحتفظ لفشنو فيها بالسيادة بتوحيده بإندرا وتجعله إياه القائم بجانبه المتعهد شئونه ، فإنه إذا كان « إندرا » يمثل صورة النظام الحربيّ فإن «فشنو » يمثل الكهنوت البراهمي !

مشكلة النفس وعقيدة الخلود ونظرية الثواب والعقاب

فارغ هذا « الكتاب المُقدَّس » المُسجِّل العقيدة ، من فلسفيّ آراء ونظريّ فِكَر عن النفس إلا في نهايته عندما بدأ العقل الإنساني يودعه الأساطير التجرديّة فيودعه من هذه الأساطير تعقله الذي نراه في الجزء العاشر من الريجفادا حين يتحدّث ، في الآية المائة والتاسعة والعشرين ، عن منشأ النفس فهو ، وهو في هذه الفترة يعود بمنشأ الوجود إلى الحرارة ، يقول بأن الحرارة ، هي القوة الأولى المؤثرة ومنها برز عالمنا المادي مشتملاً على «جاما » أو عنصر الحب والرّغبة ، العنصر الذي أخذ ينمو حتى انبجس « ماناس » أو النفس .. النفس الواعية !

بيد أننا لا نجد في هذا ؛ « الكتاب المقدس » عن النفس فكرة أكثر أن المحاربين شهداء فلا تحول إلا « ظاهرة الموت » بينهم والذهاب إلى مكان « إندرا » فهم طائفته وعلى شبهه ... وأما سائر الناس فلا شيء غير التزامهم بالطقوس يقودهم إلى مكان إندرا ...

أتسأل أين هذا المكان مكان « إندرا » ؟

إن مكان «إندرا » ، علّيون !

مكان «إندرا » جنّة ، بل جنان... له فيها تقوم مملكة بملك عريض !
مكان « إندرا » جنّة عرضها السموات وفيها كل شيء دان ...

أجل ... مكان إندرا جنان فيها اللبن وفيها الخمر أنهر جوار !
فيها اللحم أكلاً والفاكهة دانية للقطاف !

جنة ! ... فيها كل ما إليه قد صبت نفس مراهق ! جنح العقل يافعًا فعمّر هذه الجنّة بمرور الزمن بمجموعة من « أسباراس » غوان أوحور .. وكلهن على نمط وشاكلة من في هذه الجنة تقف فاتن صورة ؛ « أوشاس » !

الآية المائة والتاسعة والعشرين من الجزء العاشر متغنية بأنغام وحدة الوجود ...

في الجزء العاشر من الـ « ريجفادا » نرى الاعتقاد ، في هذه الفترة الزمنية ، قد وُطِّد بأن ليست هناك إلا حقيقة واحدة تؤكد مبدأ أول بـ « بوروشا » كأصل لوجود فسرّت مظاهره وظواهره ذلك التفسير الذي وصف الألوهة باللاأنانية وتضحيتها بنفسها ليكون الكون فكان بالأرواح العليا التي قد نمت وصارت أربابًا ، وبالكائنات التي تسير في طريق النموّ حتى تصير أربابا ... فهذه العقيدة التي تقول إن عن طريق التضحية بنفسه خرج «الواحد» من وحدته فكونت أجزاؤه المتناثرة ، بمكوناته وكائناته ، الكون قد تطوّرت من بعد إلى وحدة وجود فلسفية تُمثل البذرة في تربة :

عقيدة الفداء الإلهي

لهذه العقيدة تسجل ، في الجزء العاشر من الريجفادا ، قصة التكوين .. هذه القصة التي تقف في قائمة الأساطير التجرّدية بربطها بين متفرِّق أجزاء هذا الوجود برباط الوحدة - بيد أن هنا يتعثر العقل الإنساني مرة أخرى ، ويده ما زالت تؤيد الطقوس ومازالت العهود القديمة تطويه ، فيقول :

إن هذه الأجزاء المتباعدة إنما إلى التقارب والعودة إلى حالتها الأولى من الوحدة تشتاق، شوقًا هو سر التجاذب الخفيّ الموجود في أطراف الكون ... هي تتجاذب فيما بينها دائمًا لتحقيق هذا التوحّد المنشود ، وأنجح الوسائل لتحقيق هذه الغاية هي هذه القرابين والضحايا

بلغت تلك الصوفية الفلسفية الهاتفة بالوحدة النوعية ... بيد أن حتى هذا العهد مازالت العقلية الإنسانية في تربة الزمن عن شفافية هذه الأجواء الروحية بعيدة ، فمازالت قائمة هذه الطقوس التي استشعرت اليد الكهنوتية بها سيطرتها وعميق التأثير لها في نفس هذا المجتمع الذي يشتد اتباعه لها بها اتّباعًا والأيام به وبها تسير وبهما تبلغ زمنًا عهده تلك المرحلة الزمنية التي امتزج فيه بالآري الآري ما عدا طبقاته ، طبقة البراهمة التي ترفّعت فارتفعت إلى مستوى منه وقف دونها مجتمع جديد يرى أن عليها مقصورٌ نقيّ الدماء ومعرفة الإلهيات والدين ولغة الآباء ... مجتمع يتناول منها « الريجفادا » كتابًا فيه عن الشريعة الإفادة ، ليغلف بالقدسيّ منه الصفحات - وبالوحي « المنزّل » غلّف الريجفادا فتنزلت على الأجيال مذ ذاك العهد حتى العهد « كتاب مُنزّل » !

كتاب مقدس الريجفادا حفّ به الإيمان صحفاً مطهرة إلهية المصْدَر .. إيمان كانت نتيجته الحتمية تلك التي صاحبت التفكير الديني وبها طلعت ؛ عقيدة الوحي والتكليف الإلهي وتسييج الـ « فيدا » بسياج القدسية حتى حُرِّم للسبر والبحث ، الاقتراب منها بل وأُقْصَى كل من عن مصدرها يتقصى بكلمة : إن العَالِم مَنْ لا يسأل !

إن العَالِم ليعلم أن برهان قدسيه.. مصدر هذا « الكتاب » إنما هي اللغة الفصحى ، فيعلم أنه كتاب معجز بل إنه الإعجاز !

أجل ... السنسكريتية للكتاب الأقدس بين الكتب المقدسة الهندية لغة ، فاللغة الفصحى للكتاب لغة ... ولكن ! لئن كان هذا الكتاب بليغًا خلاّب اللغة فإن الإيمان به ، ككتاب قدسي المصدر ، إنما رهين مراجعة تاريخه في ضوء التاريخ الفكْري . ولو رجعنا وراجعناه لرأيناه كتابًا قد سطرته حسب الحاجة حاجات خلال فترات من الزمن كان التفكير الإلهي

من أعالي البنجاب على سفوح الفنديا يمتد منتشرًا تملك ، بكلمة الوحي ، منه العنان ...

بيد أن كما تسير الأيام على معتليات الفنديا نرى العقل الإنساني المتمثل بهذه الطبقة ، طبقة الكهنوت البراهمي أو « البراهمة» ، يتطور في نمو يغيب فيه فجر شباب كان لهذا الكهنوت على البنجاب فيغيب في حاضرٍ تُمثله الآن يده الجارية تُكمل من « الفيدا » أجزاء .

قرون الآن قد مضت منذ استهلت يده لسجلات الفادية تسطيرًا وأيام الآن قد سارت منذ اجتازت جماعته الآرية الجوانب الشرقية لمكان إقامتها الأول لتنتشر على سفوح الهملايا ولنهبط الجنوب وتعلو معتليات الفنديا ، فتأتي بهذا التحوّل الذي جرت يده في غضونه تسجل كجزء من أجزاء « القيدا » الـ « أتارفا » - قرون الآن قد مضت تحول خلالها العقل الإنساني من طور الحداثة وأطوار الوهم وسرعة التصديق إلى شباب ناضج دليل عليه يده الجارية الآن تكمل من الفيدا أجزاء هو هذا الجزء الذي لا نتناوله ومن صفحاته صفحة صفحة تنشر إلا ويتضوّع شذى جديد ويهب من عباراته عبير تعبق نسائمه هامسة أن العقل الإنساني قد قارب على هذه السفوح طور النضوج فالمبادئ النظرية المكوّنة جذور التصوّف الفكري تتلألأ فيه سطورًا !

إن الأفق الإلهي ، في غضون هذا التحوُّل السياسي ، قد اتّسع عن ذي قبل ... بدأ الأفق الفكريّ ينفسح ، فبدأ رب بعد رب يغيب تاركًا اسمه واختصاصاته في « واحد » ... بدأ العقل مرحلة نضوجه فبدأ يدرك ويعي أن ليس هناك إلا جوهر إلهي واحد ليس له ما « لإندرا» من صفات ومن ثمّ نراه يُطلق على الأرباب جميعًا اسمًا واحدًا يشملها

يدها أمر الإلهيات والدين ، ومن ثمَّ كان طبيعيًا والمجتمع قد أسلس لها منه القياد أن تحتفظ لنفسها بالمرتبة العُليا وأن تستدير على نفسها فتكوّن فئاتها اللاهوتية المحور لهذا المجتمع الذي يتلفّت فيرى أن ما قد ألف من نظام قديم إلى ماض يهوي ، فالخاشترية أو الطبقة المحاربة إلى المرتبة الثانية تهوي وتحلّ محلها هذه الطبقة الدينية ، طبقة البراهمة ! إن اليد البراهمية قد امتدت قوية تمتلك الناصية من هذا المجتمع الذي يتلفت فيرى أن قد قامت للبراهمة سيادة حتمًا أن بها سيسود تفكيرها الديني له تفكير ... توقّع ، حققته الأيام فإن باحتلال البراهمة مرتبة الطبقة الأولى في طبقات المجتمع الهندي طالع العهد البراهمى الأول « حوالي ٨٠٠ - ٥٠٠ ق . م » ، العهد الذي به يطالعنا :

الدين البراهمي والتفكير الديني في اللاهوت البراهمي

لثلاثة قرون من الزمن تمتد هذه الفترة الزمنية التي تلاشى فيها النظام الإقطاعيّ وسارت بها الأيام لتنحسر عن نظام جديد ينقسم فيه المجتمع الجديد إلى درجات أربع تقف في أعلاها هذه الطبقة التي انتظمته وتحوّلت تنتظم نفسها إلى طوائف ومختلف مراتب ... فقد انتظمت البراهمة « فارنا » ، أو الطبقات ، وبالخاشترية إلى المرتبة الثانية هوت ووقفت نفسها في المرتبة الأولى لتغدو عليها هذه المرتبة وقفًا ، وامتدت يدها تتحكّم في مجتمع تحكمه بهذا الدين الموروث عن الآباء وتحوّله بهذه اليد ، يد باطنها المرونة والليونة وظاهرها التشدّد والتمسك بالسنن وموروث التقاليد ، إلى حيث شاءت ! ... وأى شيء ترتضيه منها المشيئة إلاّ التحول إليها فغايتها تتلخّص في تثبيت نظام الطبقات ومن ثمَّ كانت وسيلتها إلى هذه الغاية :

مازال محتجبًا بغيم الغموض والإبهام لا يقترب منه التفكير والأيام بالعهد البــراهميٍّ الأول تســيــر إلاّ ليـرتدّ قـاصــرًا عن الإحـاطة بمعناه الكامل كتجردية إطلاقية ، فبراهما لا يُذْكر إلا كاسم ، وأما التفكير فمنصرف إلى فيمَنْ يكون هذا المبدأ الأول والواحد الأوحد ؟

أجل ... بهُويّ الطبقـة المحـاربة هَوَى المُوَحَّد بالطبقـة المحـاربة : «إندرا » .. وبهويّ «إندرا » شغرت مكانه الألوهة من إله !

ومن ثمّ فحيرة العقل وتساؤله : مَن ؟ !

من الجـانجز والجُمْنا شرقًا حتى بنارس لم تختلف طبقة عن طبقة من البراهمة في الاقتناع بأن مما لا شكّ فيه أن للوجود مبدءًا أول واحدًا – مبدءًا كونيًا خالقًا « براجباتي »

ومن « البراهماناس » ،

من هـذا الكتـاب الكهنوتيّ الذي يُسـجل التطور الكهنوتي وتدعـيم الهندوكية كدين ، نرى تفكير الفكر الإنسـانيّ في شبابه ، ففيه قد سـار المنطق اليافع بأن ببراجباتي قد وجد الحلّ ، فبراجباتي إنما الأصل لكل الوجـود بما فـيه يمور ... كل لون من ألوان الحـياة إنّمـا عن هذا « المبـدأ الكوني » موجود – أمـا كيف كان الإيجاد ، فإن الـعقل إذ للسؤال وهو في شبابه مـازال يمرّ فيفكّر تفكيرًا بحتًا غريزيًا ! ... ومن ثم قصدي لتفكير هذه المرحلة كانت أولى صفحات الـ « براهماناس » المُسَجِّلة لقصة دينية أملتها منه الشفاه محدثة أن :

« براجـبـاتي » تحت دافع غـريزي مـحض قـد جـاء بالكائنات عن طريق اتصاله بـ «أوشاس» !

ومن ثمّ فإلى « براجباتي » أبوة الكلّ تعود !

صدرت الطبقة المحاربة ومن باقي الأعضاء باقي الطبقات ... وأما من الرأس فقد أصدر البراهمة !

بهذه البدْعة ، أسطورة الخلق الفدائي ، تمّ تدعيم النظام البراهميّ – تمّ تدعيم الصرح البراهميّ القائم حتى الآن في هند اليوم التي تُعاني من جراء هذا التقسيم أعقد المشاكل من مشاكلها الاجتماعية التي عليها جرّها فقهاء هذا الدين الذين إليهم تحوّل ، بهذه البدْعة ، مجتمع يسلس لأمرهم القياد لاعتباره أن كل ما يصدر عنهم من أمر وقول فإلهي ، فكلّ من رأس الإله قد صدر ومن ثمّ فهو منْ الإله يُمثّل فِكرة من الفكَر ! ... وبهذ أصبح تفكير هذه الطبقة هو الصواب وآراؤها الدينية هي الدين !

ومن حول هذه الطبقة التفت الجماعات التي أطربها أن تراها أربابًا على الأرض تسير، بدورها إلى الجماعات التفت هذه الطبقة تقول :

إن الإله بنفسه قد ضحّى لأنه أراد أن يجعل من نفسه القربان جعل الضحية من نفسه لنفسه ... وبالإله يجب التشبُّه !

إن الإله قد جعل من نفسه هذه الضحية ليُمكّن أبناءه من أداء الطقوس حبًا لهم ولمحض مصلحتهم ليفوزوا بالخلود . فما كان فوز الأرباب بالخلود إلاّ عن طريق تقديم القربان وتأدية الطقوس !

إن السجلاّت الدينية للعهد البراهمي بهذا اللون من التفكير الدينيّ تسير ، محورها هذه العقيدة المسَجلَة أن على الإنسان فريضة الطقوس لترفعه إلى مقام الربوبية ويفوز بالخلود! ..

ومن ذا الذي من أفراد المجتمع لا يبتغي أن يصير ربًا ويفوز بالخلود ؟

بفكرة الخلود ، كهدف ، تحكّمت الطقوس في مجتمع أثمله الفوز

وأما الشرّير فيذهب إلى الجوار الشيطانيّ ، فيذهب إلى ألوان من عذاب نهايته مطلق العدم !

ولكن .. ما هو الخير وما هو الشر، ومَن الخيِّر ومن ذا هو الشرِّير ؟.. هذه أسئلة عنها في البراهماناس تُفصح النصوص بأن المِعْيَار هو أداء الطقوس !

إن الشرّير هو الذي لا يقوم بأداء الطقوس !

والخيِّر هوالذي يأتمر بالطقوس !

أجل ... في الهندوكية صِيَغ عبادة للصِيَغ الفادّية تُغَاير ، وتَغايُرها يختلف في التوجُّه إلى كلمة الكينونة ، بيد أن الجوهر من الدين البراهميّ لا يميُزه عن الدين الفادي إلاّ التزمت في أداء الطقوس ، وهذا المميِّز نفسه غدا هو هيكل جديد الدين !

ولكن ... في البناء الدينيّ ، نفسه ، الآن تَصدُّع ، ففي البناء الهندوكيّ البراهميّ خلل ! .. خلل ، إليه تتنبُّه في داخل الصرح اللاّهوتيّ ناحية هي تلك التي يتمثّل فيها العقل الإنساني وبها يقترب الآن من مرحلة النضوج ... فهناك قصة من قصص الدين الهند وكي ، لم يعد يتقبلها العقل الصاعد مدارج النضوج ، فالقصة قصة تمثل مجون العقل الإنساني يافعا وتحلّله من قانون اخلاقي يجعله « المبدأ الخالق» عاريًا من الخلق ! ... قصةُ إليها مستوعبًا يعود ، فيقرأ :

إن « براجباتي » أحسّ يومًا بشغف شديد نحو ابنته ، ربة الفجر ، أوشاس ، وما أبدى لها هذه الرغبة حتى ارتاعت منها ارتياعًا شديدًا ونفرت من وجهه مذعورة فتعقّبها وأخذ يرقب حركاتها ... فكلما تشكّلت

وتحـولّه عن جمـوح الغـريزة إلى التـفـجُّر العـاطفي .. ومن ثمّ فـإلى تلك الأسطورة تضيف يده من الأسـاطير أسطورة أخرى تقول : إن الأرباب بـ « شيفا » على أبيه مرتكب الفاحشة قد استنجدت ، فلبىّ المُنْتَقِمْ «شيفا» الاستنجاد وطعناً قتل « براجباتي » !

وهكذا يبدأ في تيّار التفكير الديني ولوج المذهب الأخلاقيً في دين الطقوس ليطالعنا ؛

المذهب الشيفي في مجرى الدين الهندوكي وتحـولُ الدين إلى الأخلاق

بُعث من طيات الماضي « شيفا » بهذه الفئة من قلب الكهنوت البراهمي بيد أن إلى «شيفا» لا تتحولّ هذه الفئة تحولّها القديم تراه ربّا يُنزل علي كل شيء بطشه وإنما ترى أن بطشه لا يقع إلاّ على الرذيلة !

وفي المخيِّلة عَلاً « شيفا » سيدًا في يده المِحَن والمِنَح – بالمِحَن يرمي مَنْ عن الطريق المستقيم يحيد ، وبالمِنَح يمنح مَنْ في طريق الفضيلة يسير .. في يد شيفا مفتاح الطبيعة ففي يده تلك العملية السرمدية الممثلة في ظاهرتيً الحياة والموت !

في شيفا ، تَمثُّل الوجود الكونيُّ بسرمده فأضحت صفات النقمة للرحمة عنوانًا ... صفات ، بوصفها أفاض اللسان البراهمي إفاضة نَحَت بالتفكير منه ناحية التأمل الديني لتتّجه به الاستزادة من هذا التأمل إلى صوفية صَفَتْ بها نفسه فتفجّر في قلبة ينبوع الحب وطلع يتغنّى بشيفا رحيمًا لا يُنزل النقمة إلاّ انتقامًا ، فضربته ليس دافعها إلاّ الحكمة وليس سببها إلاّ : الحب !

صورة لشيفا جديدة نحوها يتّجه الوجه البراهمي يُقلّبها .

أجل ... لشيفا جرى مذهب عبادته تنحصر في ؛ الاعتصام بمكارم الأخلاق ولجَّ مـذهبه في نطاق الدين الهندوكي ليـجري في مـجرى دين ، شريعته الطقوس ، مذهبًا شريعته ؛ « «الأخلاق » ..

بهذا التـحوُّل بدأ العقل الإنسـاني يستشْعِر تفاهة الطقوس فبدأ التململ من جوانب أخرى وبدأ هذا السؤال : إن الكهنوت يحصـر الخير في أداء الطقـوس والشـر في الانصـراف عنها .. فـمـا هي مـاهيـة الخيـر والشر ؟

بسـؤال مـاهيـة الخيـر والشـر ، انبـثق ، في صـرح الدين نفسـه ، الضمير الإنساني ! ... وبانبثاقه تنبَّه العقل الإنساني فوجد نفسه يعيش في جو يخنقه الدين الهندوكي بأغلال عادات وقيود طقوس لئن كانت قد استعذبتـها من المجتمع فئات فمنها قد أُرهقت فئات أخذت تتململ ويشتدّ تحت ضـغط النيـر الكهنوتي تململها حـتى أفـقدها التـململ الصـواب فـاندفعت في كل مـتَّجه! ... فـهناك فئـات من المجـتمـع قد انحلَّ ، بسـبب تمسكها بالطقوس ، تماسكها الاجتماعي والأخلاقي انحـلالاً به تقلّصت الحـالة الفكرية للبلاد ! ... ظاهرة أدَّت إلى ظهور ناحية من هذا المجتمع اندفعت مُهـتـاجة على قيد الطقوس ومتدفقـة اللسـان انطلقت تـخطو تلك الخطوة التي حتَّمـتـها الحـالة الراهنة للبـلاد فـتـقف من الدين القـائم ذلك الموقف الذي سجل على هذه السفوح :

النظرة السفسطائية إلى الدين

للفيدا ، الكتاب المقدس ، تناولت السـفسطائية فنالت منه بالهجـاء مستصـرخة الحقيقة من وراء كتاب ترى أن آياته شيء وتفسيرها شيء آخر .. فـهي ترى أن لأغـراضـه قد أخضع الكهنوت من هذا الكتاب الآي

لا شيء النفس ! فلا شيء هي سوى تلك الحيوية الموجودة في الجسم - ومضة تُومْض .. وتمضي !

شُعْلة إنما النفس في الجسم ، إذا ما قضي قضيت ! ... إن هذا لحقيقة وعليها تأتي الشواهد والأدلة بأن النفس شُعلة في الجسم وعلى الجسم ضعيفة الأثر والتأثير فإن على سلطانها للجسم سلطانًا ، وإلا فأين تكون النفس وأين مكانها إذا ما أوهن الجسم مرضٌ وأرهقته للدنيا صنوف آلام ؟ !

أجل ... في نطاق الدين الهندوكي ، ناضجًا ، تنبُّه العقل الإنساني فرأى ثورة على الدين تندلع بهاتين الظاهرتين « السفسطائية » و « المادية » - وعلى الوضع الكهنوتي ، وجد ، كل منهما ، بالثورة حقًا حقيقيًا ! ولكن صَبغت الواحدة رعونة التسرُّع وصَبغت الأخرى صلابة التشبُّث وبين سفسطائية تستنكر وماديّة تنكر يقف مجتمع وراء الظل الكهنوتي تسير جماعاته تُؤدي الطقوس !

من بين البراهمة وفي داخل الصرح الكهنوتي ، ناضجًا ، تفتَّح العقل الإنساني على جو زمنيٍّ هذا لونه فوجد نفسه يتحوَّل تمام التحوُّل إلى تعقُّل فيه رأى أن تفكيره كان تفكير الشباب عندما جاء بعقائد واستنَّ طقوسًا لئن استمسك بها من جماعته الكهنوتية الجانب الأكبر وتبعتها جموع الجماعات ، فإنه عن هذه الطوائف الكهنوتية والجماعات الجماعية ينسلخ !

أجل ...

مازال عليه من الكهنوت رداء ، ولكن الفكر منه من التفكير الكهنوتي البراهمي قد تحرّر وعن التفكير الدينيِّ الهندوكي قد نما !

النفس .. وبهذه الأسرار راحت يده تُسجِّل هذه السجلات التي طلعت باسم : « السجلات اليوبانيشادية » أو « «التعاليم السرِّية » التي راح مسطرًا ، منذ فجر القرن السابع ق . م حتى مغرب القرن الأول ق.م، منها الأجزاء المائتين والخمسين ... أجزاء ، بنشرها ينتشر العهد الفلسفي والدين الصوفي العقلي ، ويطالع الفِكْر هذا العهد الذي سجّل مطلعه :

انبثاق المذهب اليوبانيشاديّ

لا يهمنا من الأجزاء المائتين والخمسين اليوبانيشادية إلا قرابة عشرة قصرت عليهم الأهمية ، منهم الـ « مايترى » ومنهم الـ « سفاتارا » ، وأما أهمّ العشرة في هذه السجلات فالسجلان الأوّلان اللذان جريا بتسطيرهما الفكر اليوبانيشادي فيما بين القرن السابع والقرن السادس ق . م .

« بريهدارانيا كا – يوبانيشاد »

« شاندوجيا – يوبانيشاد »

بهذيـن السجلّين اللذين لم تُدّع لهما قدسية وبهما لم يحف حفيف « الوحي المُنزّل » ندخل العهد اليوبانيشادي فندخل عهدًا جديدًا تفتّح فيه ، في تربة النفس ، الفكر تفتُّحًا قلما بلغه إلا لماما على غير هذه السفوح ، فالتفكير ليس بجديد فحسب وإنّما غريب على كل ما قد سبق للعقل الإنساني من تفكير فهو يُمثّل في تاريخ الفكر لا حالة التحوُّل من حال إلى حال ، وإنما نقطة الفصل بين حال وحال ، فمن هذا التفكير تعبق لأول مرة في أرجاء الوجود نسائم الطُهر الصافي صافية قوية الأريج ، لا يضيع تضوّعها في طيات الأجيال ! كلا

يقولون بل ذاك ! بينما في الحقيقة ليس هناك إلا واحد هو الموجود ، وهو كل الوجود ! .. »

« بريهدرانياكا ـ يوبانيشاد »

وبرأيه أيقن العقل فقام ينفي وجود الأرباب معلنًا أن ليس هناك إلا آله واحد جامع لكل ما قد فرّق العقل يافعًا من صفات ووهمًا جعلها مُتفرِّق أرباب ... فكان اليقين يقينًا أسلم الفكر، يوبانيشاديًا ، من « التعدُّد » إلى « الوحدة » ، وإلى التفكير في هذه القوة الكونية التي قديمًا ، في حداثته وشبابه ، قد أدرك ، وإن يك بإبهام وغموض ، لها وجودًا ... فمنذ بدأ شعره ينتظم الريجفادا وشفتاه بها تهمهم « كلمة » تعني القوّة العاملِة في الكون ! همهمة رجّعها أصداءً في البراهماناس ... وكقوة سريّة عنها تحدث في البراهماناس بل وأفاض فعناها الأصل حين همهمت بها شفتاه :

« براهما » !

.. أجل !

قرون الآن قد مضت منذ صيغَت شعرًا أناشيد الفادية وآيات الريجفادا ... وزمن من الزمن مضى منذ سجلّت اليد سجلات الأتارفا وباعدت بين الأرباب تدريجيًا وأطلقت عليها اسمًا واحدًا شملها جمعا ليجمعها جمعًا ويفنيها في وحدة إلهية ، بيد أن نحو هذه الحقيقة السرمدية ، في الريجفادا كبا العقل صبيًا وفي « البراهماناس » يافعًا تعثّر ، فما أدرك ويده تسجِّل منهما سطورًا أن « الأول » الذي عنه يبحث هو ما قد عناه بالأول، وأن السرَّ المجرَّد إنما هو المجرَّد :

المعرفة ... وإلى « المعرفة » طرق العقل شتّى الطرق ... فوجد أن كلمّا ازدادت معرفة العقل ازداد قوة .. تحقّق أن المعرفة إنما القوة والقوة إنما المعرفة .. فتحوّل بتعليمه يُسِرُّ أن «السرّ» قد بدأ بسرّه يُفضي فإنما « براهما » القوة السكونية هو ؛

المعرفة ! .. وازداد العقل تفسيرًا في طبيعة هذه «القوة السريّة» فَوَجَدَ أن المعرفة الكاملة لا تكون إلا نتيجة فِكْر ... ومن ثمّ فبراهما إنما يقينا ؛

المُجرَّد ! .. والمجرّد ؟ ! .. « المجرد » إنما ؛ مجرّد فكر ! ..

واسْتَغْرق الفكر اليوبانيشاديّ في تأمّله هذا «الفكر المجرَّد» فوَجَدَ « براهما » وهو القوة الكونية والمعرفة الكاملة و « الفكر المجرَّد » إنما يقينا أن ماهيته :

الفكر اللاّمتناه !

ومن ثمّ فـ « براهما » ، وهو «المعرفة الكاملة» و « الفكر اللاّمتناه » والموجود الأول العالميّ الكليّ ، تغدو له صفة لازمة :

المُطْلقيَّة ! ..

عن طريق التفكير البصيري أو الحَدَس جرى المنطق اليوبانيشادي هذا المجرى .. فجرت اليد اليوبانيشادية تعْلن : أن براهما هو ؛

المطلق الكليّ ! .. ثم إلى حلقة حتمية من سلسلة المنطق انتهى العقل اليوبانيشاديّ فانتهي إلى أن : « المطلق الكليّ » إنما أصل لوجود نابض بالحياة ... من ثمّ ، والحياة نفس ، فإن « المطلق » نفسه ؛

نفس ! ... وفي أفق البصيرة امتدّ الفكر صافيًا متأملا فتحوّل

إن « براهمان – أتمان » ، هو الحقيقة في ومِنْ كل شيء ... وسواء أكان هذا الشيء جمادًا أم حياة فإنما هو حقيقة الشيء الجوهرية ! ..

« براهمان – أتمان » هو الحقيقة المتحقِّقة في كل ظاهرة ... من ثم هو في كل شيء حالّ وهذا الحلول هو الذي يُحَقِّق لكل شيء وجوده وكل شيء تتوقَّف حقيقته أو باطليته بقدر ما ، قلة أو كثرة ، على هذا « الجوهر السرمديّ» منه سرمدي الجوهر يَشْتَمِل !

على هذه الأسس تحوّل العقل ، يوبانيشاديا ، من العالم الخارجي إلى العالم الداخلي وفي هذه اللجَّة لجَّ فوجد ؛ أن « براهما » هو «الكل» وهو النفس الكليَّة « أتمان » وهو الأصل في النفس الكائنية « أتما » !

ومن ثمّ راح المنطق الرصين يُعلن ؛ أن كل نفس فردية إنما من هذه « النفس الكبرى » جزء وأن هذا الجزء مشتمل على شبه براهما !

إلى أعماق النفس عمق العقل ، يوبانيشاديا ، حتى تدرَّجت المراحل التطوريّة بتفكيره الإلهيّ إلى أن يرى أنه ليس هناك إلا « أتمان » واحد أو « نفس كبرى » متكثرة في نفوس متفرقة هي جوهريًا واحدة ونفس « النفس الكبرى » !

وعلى أسس هذه البراهين التي انتزعها العقل من أعماق النفس على وجود « النفس الكبرى » ارتقى به التفكير سمت أشرف منه فرأى أن النفس إنما بطبيعتها ، نصيبها الخلود !

إن « الأتما » أو النفس إنما الصُغرى من الكبرى ومن ثمّ فهي من الخضم النوري الصافي قطرة منيرة صافية أحاطت بها أغلفة من المادَّة في صورة هذا الجسد ففصلتها عن «المصدْر » وحجبت الحقيقة عنها مادَّة هي في حقيقتها محض سراب !

ولكن ...

إذا كانت روح المحافظة على البناء الديني قد اضطرت ناحية من الكهنوت للتعصب لدين ورثته عن الآباء بالاحتفاظ بالطقوس فإن من داخل الصرح الكهنوتي نلمح بادئ ذي بدء التذمر من النواحي الممثلة مجرى التيار الفكري على هذه السفوح الناحية التي فيها تحرّر العقل من طقوس بناها يافعًا ليرفع صوته ، ناميًا ، ويعلن :

إلغاء الطقوس !

من أرجاء الدين ارتفع للحقيقة صوت سَرَي في مسْرى الفترة التاريخية من الزمن للقرن السادس ق .م ملقيًا عنه الرداء الكهنوتي متحررًا من الضحايا ومنطلقًا إلى أفق أمامه بعميق أسئلته يتسع ولصوته يرجّع أصداءً ، مُعلّمًا :

بدعة إنما هذه الطقوس التي تقف في حقيقتها ، بين الخِدَع ، الخدْعة !

أعلن العقل تفاهة طقوس استتنتها حدثًا فارتقى إلى طور أدرك فيه أيَّ العبث كان العبث في دماء تراق وإشعال محرقات ... بيد أن وإن ظلّت الطوائف المحافظة من الكهنوت تحافظ على تقاليد السلف وعاداته في صورة هذه الطقوس لتُحوِّلها تدريجيًا إلى رموز تُؤَدى للعبادة ، فإن هذه الطائفة الأخرى التي أبت إلا « للسِّر » في « تعاليم سرية » تعاليم قد أبت إلا اعتبار الطقوس رمزًا صارخا لصارخ العبادات الماديّة !

بعيدًا عن الطقوس تقف هذه « التعاليم السرِّية » تنادي الإنسان : إن الإنسان العارف إنما المُتَحرّر من الصيغ المادية المُقَيدَة للنفس دون الانطلاق إلى عالمها ، بل حائلة بينها هذه الطقوس والاتصال بالمصدر

صوفية « نيرجرانتهاس » العائد بتاريخ مذهبه إلى القرن الثامن ق .م ...
فمن جذور تلك الصوفية تمثّل الصوفية اليوبانيشادية الثمرة التي ارتفع بها هذا الفرع إلى الحقيقة فترفّع عن مادي العبادات إلى عبادة اقتصرت على المعرفة ... ولأول مرة في تاريخ التفكير الدينيّ يأتي الفكر بدينٍ عقليٍّ بعيد عن إراقة دماء ورفع محرقات ، ويعلن أن الدين :

المعرفة ! ما هي المعرفة التي تُحدّدها وتعنيها اليوبانيشادات ؟ إن اليوبانيشادات لك تقول :

إن في المعرفة قوّة بل القوة هي المعرفة وستقودك المعرفة ، حتمًا ، إلى أن تعرف أن الوجود إنما في حقيقته ظلال .. وأنك متى عرفت أن هذا الوجود إنما **ظلال الحقيقة** ، بطُل سعيك وراء الظلال واتّجه نحو الحقيقة ...

أما كيف تعرف أن الوجود إنما في حقيقته ظلال الحقيقة فالوسيلة هي أن تدخل إلى نفسك وتبحث ... عند ذاك ستعرف هذه الحقيقة ، ومتى عرفت هذه الحقيقة وعرفت أن الحقيقة الواحدة هي «براهما» وأنه القريب البعيد ... وأنه في « إنسان العين » وفي الفكر وفي النفس ، فإن بحثك سيقتصر على ؛

معرفة « براهما » .. المعرفة من ثمّ تنحصر في ؛ الانطلاق إلى «المُطْلق» والتناهي في « اللأُمتناهي» ! إن أعظم سر لك يتكشّف هو أن تعلم هذه الحقيقة ، ومتى علمت هذا العِلْم وعرفت هذه المعرفة ، فإن الطمأنينة والهدوء يغدوان لك طبيعة ، والصواب منك يصبح أبدًا على صواب ...

أصغ ! إن الصوت من « المطلق » في داخلك لك حقيق صوت ... إذا إليه أصغيت لا يمكن لك قطّ أن تنحرف وللشرّ دون الخير تميل ، فصوت « براهما» فيك ؛ **الحاكم الداخلي المشرّع للأخلاق قانون !**

أمّا كيفية بلوغ المعرفة فهكذا : بالحواس ، يتصلّ مركز الحياة في كل كائن فتُلقي الحواس إلى القلب محسَّاتها ليتولى نقلها إلى الوجدان الذي يرفعها بدوره إلى «المدرك الأعلى» «للحكم ... بيد أن للمعقولات العُليا لا تستطيع « ماهات » إدراكًا وإنما يتحدّد اختصاصها بإدراك المعارف الآتية عن طريق الحواس وبتذكُّر معارف الماضي وبالتنبؤ أحيانا بالمستقبل ، ومن ثم فإنه كاتصال الأعضاء الماديّة الكثيفة بالعناصر المشابهة لها في الماديّة والكثافة ، تتصلّ القوة الروحية الدقيقة بالمشابهة لها من العناصر !

عن المطلق والشخصيّ أو عن أجنبية المدرك الأعلى عن المادّة وعن غمرة إياها في نفس الوقت ، فريدًا وقف العقل الإنساني في خطوته اليوبانيشادية انفراده في تعريفه ماهية الخير والشر ، فهو إذ يضع هذه النظرية ، نظرية الشخصي والمطلق ، إجابةً عن سؤال نفسه لنفسه، فإنّما ليُعْلِن :

إن الصادر عن «المطلق » أو الحق فالخير ... والصادر عن الشخصيّ أوالباطل ، فالشرّ !

وهنا يتجِّه العقلُ الإنسانيّ يجيب :

إن الخير والشرّ لا ينطويان في نسبية فإن للحق وللخير قانون يُدعى ؛ القانون المُسَطَّر على القلب البشريّ !

على القلب مسطر قانون سطَّرته « النفس » ينحصر في الخير فالنفس الصغرى إنما من « النفس الكبرى » نفس !

من ثمّ فَسرْ على قواعد هذا القانون وعن مبادئ النفس لا تنحرف ولا تخلط بين خوالج النفس ونوازع الجسد فتقول خطأ إن النفس بالسوء

للوحي الهابط تنتفي التعاليم اليوبانيشادية على أسس الرابطة النوعية بين « النفس » والنفس لتنتفي على نفس هذه الأسس أيضًا نفيًا قاطعًا التشاريع القائلة بها الأديان المنزّلة ... وتنفيها على أسس عميقة من عميق صوفيتها الفلسفية !

أجل .. إن الصوفية الفلسفية في صورتها اليوبانيشادية لفكرة الوحي المنزّل كل وتمام المعارضة تعارض ونفيًا قاطعًا تنفي وبرهانها الذي تقدمه هو : نفس الصوت الداخلي ! .. فإن **المكالمة من الداخل تنفي المكالمة من الخارج !**

للوحي الهابط تنفي الصوفية ، كفلسفة ، على أسس هذا القانون الموجود في الداخل والذي تراه هاديها إلى الدين الحق ، فإن هذا القانون الموجود في الداخل هو صوت النفس والنفس ؟ النفس الصغرى إنما جزء من النفس الكبرى !

من ثمَّ فهذا الصوت ، صوت النفس ، هو نفس صوت النفس الكبرى أو الإله ! لو سار كل كائن وَفق تشاريع الصوت الداخلي واتَّبع له شريعة هي في رحاب التفكير الصوفيّ إنما الشريعة المثالية لدين مثالى ، لجَانَب الشرّ وإلى محض وهم له رد!

وما الشر ؟

ما الشرُّ إلاّ رغبات هي وليدة هذه الشخصية ، ومن ثمّ متى تحرَّر الإنسان من الأنانية أدرك : أن لا شيء هناك قط اسمه الشرُّ ! .

إن الشر إنما مجرد ومحض وهم ! أوَشك أن الشر وهم ؟ ... إليك البرهان ، والبرهان : « ظاهرة الموت » .. إن الموت يُعَرِّف بالشرّ ، بيد أننا قد مررنا الآن على النفس وعرفنا لطبيعتها خلودًا – عرفنا أنها من

وهكذا تجابهنا في التفكير الديني البيوبانيشادي : **مشكلة الثواب والعقاب وانبثاق.**

«عقيدة الصيرورة »

إن الإنسان يترك عند موته « كارما » أو الأعمال ، الحسنة والسيئة ، وهذه تُنْتج نوعا من المسئولية يتحتّم ، طبقًا للعدالة ، الثواب عليها وعليها العقاب ..

ولكن أين ؟ ! أين وليس لجسد بعد موت بعث في يوم ، كيوم «أوزير» ، تُجْمع فيه الأعمال وتوزن ، كميزان « أُوزير » ، في ميزان كلا ولا هناك عذاب في نار ولا نعيم في جنة ، كجنة « إندرا » ، جزاءً فهذا تفكير لتفكير الصوفية مناف ... فأين ؟

أين سيكون متحتم الثواب والعقاب وقد جَفَت المخيِّلة الصوفية لإندرا مكانًا أمام إدراك منها لجٌ العالم النوري الطاهر الصافي ، عالم « الأتمان » ؟ !

لم يبق مكان لهذا الثواب والعقاب إلا هذا الجزء «المادي» من الكون!..وهنا تذهب اليوبانيشادات وتقول بالجذب العالمي والصدور في دورة دورية تدوم سرمدًا... وإن هذا الصدور والجذب المسلسل ضرورة أخلاقية لأن في كل دورة تُجَازى الأعمال وتعاقب بهذه الطريقة عن طريق، **الصَيْرورة !**

هكذا انبثقت في أفق التفكير اليوبانيشادي عقيدة «الصَيْرُورَة» !... كضرورة أخلاقية انبثقت هذه العقيدة القائلة بالنسخ والمسخ والفسخ مما إليه تنقسم الصيرورة من صور إنسانية أو حيوانية أو نباتية ... سيحل الإنسان في إحدى هذه الصور ، تبعًا لأعماله ، فإن «كارما» أو الأعمال ·

بمسطرىَ اليوبانيشادات امتدت نزعة تأملّية جاءت بهذه العقيدة ، عقيدة « الصيرورة » ، التي لم يك لها من قبل تحت هذا اللون وجود فإن « الريجفادا » لا تعرف الصيرورة ، كلا ولا تعرفها « البراهماناس » التي تتوعَّد الآثم بالموت ثانية في عالم آخر عقابًا فتجعلها موتتين ، بدل مرة واحدة ... ليس إلا في «البريهادرانياكا» ، أولى الأسفار اليوبانيشادية ، تطالعنا لأول مرة عقيدة « سمسارا » أو الصيرورة ومنذ ذاك الحين حتى الحين والعقيدة عقيدة الهند قاطبة فيها قد تأثرت المذاهب العقلية والدينية بل امتدّت غربًا حتى اليونان الصغرى ، حيث سنسمعها من الفيطاغورية تعاليم ، بل وشقّت طريقها شرقًا حتى اليابان ، حيث حملتها أجنحة البوذية ، كدين وُلِدَ في أحضان اليوبانيشادات ...

أجل ...

بالعقيدة الفلسفية اليوبانيشادية خُضب التفكير غَيْر الهنديّ كما أصبحت هذه العقيدة ، والأيام تسير ، عقيدة الهند التي لا تقبل شكًا ، فقد اعتنقتها الهند عبر عهودها التاريخية وكانت نقطة التحوُّل في تاريخها الفكريّ الدينيّ فقد جرت هذه العقيدة في المجرى الديني كعقيدة من معتقدات الدين الهندوكي ، وكعقيدة دينية جاءت بمذاهب شتّى ، منها ما قد انصرف إلى الزهد ، ومنها ما قد انصرف إلى المعرفة ، ومنها ما قد تحولّ بدوره من مذهبٍ إلى دين .

أجل ...

مدويّة انسابت التعاليم اليوبانيشادية على هذه السفوح ترجُّ الأرجاء من الشمال والجنوب وتتجاوب فيها أصداء كانت لها أكبر الأثر في تحويل التفكير الهندى على مختلف نواحيه فقد اتخذ هذا التفكير

أيُّ الطُرُق إذَنْ طريق الخـــلاص مِن الصـــيـــرُّورة ؟ تجــيـب اليوبانيشادات أن ؛ الخلاص من « الصيرورة » يتلخَّص في : الاتحاد !

أيُّ الوسـائل إذن يمكن بـهـا للنفس ، على هذه الأرض وفي نطاق هذه الحياة ، الاتحاد ؟

الوسـيلة ؟ الوسـيلة إلى «الاتحـاد » هي « أمـرْ نرا » المتلخِّصـة في سعي النفس بالنفس للخلاص ...

للتخلُّص من شرّ « الصَيْرُورة » ، لا من الحياة كما وهمت للشرق وللغرب في صدد التفكير الهندي أقلام فإن النفس لدي اليوبانيشادات هي الحياة ، استخلص العقل اليوبانيشادي خلاصًا ...

للتخلُّص من شرّ «الصَيرُورة » بصورة بعد صورة ، وكل الصُوَر مهما اختلفت فكلها شر بل إن كانت تختلف عودة الخَيِّر عن عودة الشرير إلى الحياة الأرضية إلا أنها في ذاتها شقاء وبائس وشقيّ الإنسان لأنه في كل مرحلة من مراحل حياته يعيش في طوايا السراب .. للتخلُّص من شرّ الصيرورة لا مِنْ الحياة وإنما من وهم وأوهام الحياة ، طلبا لحياة حقيقية تتحدّ بها النفس ببراهما ، تعلن اليوبانيشادات أن أمامك ، أيها الإنسان ، طريقين هما :

المعرفة والاعتزال

المعرفة : معرفة النفس .. تُرينا اليوبانيشادات الطريق الواجب لمعرفة النفس طلبًا للنجاة .. فهو طريق تلخّصه اليوبانيشادات بقولها ؛ إنه يتلخَّص في إخضـاع الجسـد للنفس إخضـاعًا تامًا وتمرين النفس على التحـرّر الكامل حتى تلبغ درجة الاتِّحـاد بـ «النفس» !... وهذا الاتِّحـاد بالمصْدَر والتسامي إليه يتم للنفس عن طريق تطويق نفسها بـ «النفس»!...

بـ «النفس» فبنفسها النفس إلى الاتحاد بـ « براهما » في «عالم براهما» قد صعدت !

هذا هو طريق « المعرفة » أو الطريق الذي يُطوق بـ « النفس » النفس ... الطريق الذي أصبح يُسمّى « يوجا » ليتحولَ إلى مذهب نعرفه باسم :

اليوجية.. مذهبٌ اليوجية اعتنقته الناحية الروحية في الهند القديمة بل ومازالت «اليوجية» من أثر ذلك الماضي في هند الحاضر تعيش بتعاليمها منهجًا لإطلاق القوة المختزنة للنفس ... ومازالت اليوجية في غير الهند تعزل ناحية من الناس إلى معزل عميق في أنفسهم لتُبْلغهُم الذروة ببلوغها بتعاليمها الذرى !

والاعتزال : اعتزال الأعمال ... بديهي أن إذا كانت الأعمال تؤدّي إلى الصيرورة فإن اعتزالها يؤدي إلى الخلاص ...

لهذا السبب سجلّت اليوبانيشادات أن ، وجميع الأعمال البشرية شر دون استثناء ، كل عمل من الأعمال لا يجدي نفعًا وفي حقيقته إنما سلبيّ لا إيجابي لأنه يُصْرف الإنسان عن التفكير في الحقيقة الباقية ... واليوبانيشادات إذ تقول القول فإنما تقوله مستندة إلى مساند قوية من حِكْمتها التي تغلغت إلى ما وراء المظاهر للأشياء وأدركت أن ليس الظاهر في حقيقته إلاّ وهمًا وأما الحقيقة فمحجوبة بحلم الحياة ! وبدافع هذا السبب تنادي اليوبانيشادات الإنسان :

يا أيها الإنسان إنك متى علمت أن الوهم إنما كل ما تلمس وترى ، وأن السراب كل ما تجيء به إليك الدنيا مما تحسبه أقصى السعادات ، لتساءلت :

« يوجا » و « تاباس » ، وكلاهما بمميِّزات يمتاز ، فكلاهما إلى عالم الحقيقة بالنفس يرتقي ، وسواء اِختارت النفس التقشُّف والإرهاق الجسدي عن طريق « تاباس » أو اختارت التركُّز الذهنيَّ والهدوء النفسي وسبيلهما الدراسة والبحث عن طريق « يوجا » ، ففي كليهما سيتلاشى العالم الخارجي وسيبرز العالم الداخلي ...

وفي كلا الطريقين سارت الهند الزاهدة في سراب الحياة وإن رَجَّحت الناحية العقلية فيها على الـ « تاباس » الـ « يوجا » وطرقته طريقًا بها ينتهي إلى « عالم براهما »

أيّ شيء « عالم براهما » ؟

« عالم براهما » خلّي مما به « عالم إندرا » يمور !

بقدر ما تأجَّجت من العقل الغريزة ، حدثًا ومراهقًا وشابًا ، كان سموّ التقى والتعفُّف للعقل ناضجًا فبلغ أصفى ألوان الصفاء العقلي عن طريق إخضاع الجسد للنفس ، ومن ثمَّ غدا النعيم للعقل ، ناضجًا ، شيء يتخلَّص في سعادة الاتحاد للنفس بـ «النفس» ..

هذا هو عالم « براهما » عالم النعيم الفكري واللذَّة الوجدانية والطهر النفسي !

وببراهما و « عالم براهما » هام الهُيَّم بحثًا وبالهُيَّم برحت تباريح وهوى به استطابت منهم النفس لذَّةً زاد من أوارها أوارًا هذا الوله المتأجج للروح العطشى ومن حدَّتها المرهفة حدَّة سكون البلاد المرهف ، وأصائله المتوهجة وصباف لياليه !

حين تغرب الشمس.. وحين يغيب القمر.. وحين يخمد اللهب.. وحين تصمت الشفاه ... حينذاك يسطع نور « الأتمان » ! .. وحينذاك ، بذلك التجرُّد والتأمُّل ، تتحد بـ « النفس » النفس !

كلا ، لم تشق « الحقيقة » أحداً ولا لأحد عن الآخر أرادت تقريباً فالكلُّ لديها سواسية والكل لديها سواء وإنما ؛ الإنسان هو الذي إلى « الحقيقة السرمدية » يرتفع وبها يربط منه النفس فينال الاتحاد .

قادت اليوبانيشادات الناحية الفكرية وأتت في تاريخ التفكير الديني بلون جديد فعن اللون الماديّ تنأى هذه الصوفية الروحية وبدين الآباء لا تلتصق ، لا تستند اليوبانيشادات إلى كتب مقدسة ولا تدّعى لكتبها القدسية فما كانت وهي المستنكرة الوحي الهابط لتدّعي لأسفارها قدسية التنزيل ، وإن كانت هذه الأسفار حَرِيَّة بالتقديس !

أجل ...

عن الدين القائم بطقوسه وشريعته وشعائره وتكاليفه تحوَّل التفكير اليوبانيشادي بالكائن الإنساني يقيم لمذهبه الصوفي قويم بناء لا يعتمد الأخذ به على شيء مما عليه يعتمد في ظلال الدين البراهمي من مظاهر ، فاليوبانيشادات إنما مذهب لا يطلب من المُريد فيه إلاّ طلب التحرر من الأثرة وذاتي المنفعة وسادر النزوة وعابر الشهوة ، ووسيلة هذا التحرُّر إنما الاعتلاء بالنفس ...

كلا !

الدين الصوفيّ عن الحياة لا ينصرف ، فانصرافه إنما ينحصر في الانصراف عن الحياة الوهمية التي نراها في صور التكالب على جمع المال وإفناء العمر في فإنى بيداء الاهتمام فيها مقصور إلى البوارق عن الجوهر ... فالصوفي ، سواء أكان في صورته اليوبانيشادية أم في أية صورة غيرها ، إنما عن الحياة ، في زهده لا يشيح ! لا يشيح الصوفيُّ إلاّ عن الوهم مِنْ وفي هذه الدنيا طلباً للحقيقة .

التي لا تنسب إلى نفسها وحيا هابطا وكلاما منزلا وإنما بصورة غير مباشرة تنفي فكرة الوحي الهابط والكلام المنزل وتدحض عقيدة التنزيل ! ...

أجل ...

سجلت للعقل ، ناضجًا ، سجلاّت اليوبانيشادات فلسفة وقفت بين الفلسفات في القمّة فإلى أعماق نفسه عمق العقل ولها تَأمّلَ ... تأملٌ به برزت إلى صفحة الذهن منه فكرة الوحدانية التي تطورت إلى « أتمان » أو « نفس واحدة » كحقيقة متكثّرة في نفوس متعددة كلّها جوهريًا واحدة ونفس « النفس » ! ... بهذه الفكرة نبتت لديه عقيدة « حلول الحق المَطْلَقْ في الباطل الشخصيّ » فكانت تعاليمه تلك التعاليم التي رجّت أرجاء عالمه قاطبة ودويًا سرّت في المجرى الديني وما غَاير هذاالمجرى من ألوان الفلسفات التي عرفتها الهند ، بل انسابت إلى الخارج أصداءً تردّد تعاليم هذه الفلسفة فرفّت على زمن ذلك الزمن ؛

عقيدة الوحدة الحلولية

تعهّد التفكير اليوبانيشادي في تربة النفس البشرية عقيدة الوحدة الحلولية فأنماها حتى التمام كما إلى ألوان مختلفة من العقلية البشرية امتدّ التأثير اليوبانيشادي بل بعبارة أدق يمكننا القول بأنه هو التفكير الذي كان له الأثر في تحويل التفكير الإنساني وتوجيهه إلى وجهة نفسية وروحية خالصة تجافى ماديّ العبادات فإن عن كل ما قد عرفه من تفكير دينيّ قد تحوّل العقل تحوُّلا تامًا أفقد القرابين والطقوس قيمتها المادية ... فإن من جراء التفكير اليوبانيشادي القائل بأن السعادة الحقيقية إنما

كل عمل إنما لعامله عاكس ... من ثمَّ فالكون إنما من عمل عامل يتطوَّر وينمو ! .. ولما كانت الألوهة إنما مرتبة ترتد عنها صفة التطور وسمة النمو ، فخاليًا إنما الكون من إله أو «نفس كبرى» وليس هناك حقيقة وجود إلاً ؛ للنفوس !

إلى السانخية ، كفلسفة ، مالت الجينية واستهوتها عقيدتها المؤكدة فكرة تحقيق الحرية الشخصية والمسئولية الأخلاقية ، النافية «الوحدة » والقائلة بـ «التعدُّد» .

وإلى اليوبانيشادات ، كصوفية ، مالت الجينية وبهرتها إعجابًا عقيدتها القائلة بـ «الصيرورة » !

بين فلسفة تقول بالتعدُّد ، وصوفية تقول بالوحْدة ... بين سانخيَّة تنفي وجود « نفس كبرى وتأبى إلاً للنفس الصغرى وجودًا، ويوبانشيادية تؤكد وجودُ نفس كبري» وتجعلها مصدرًا وسببًا لوجود « النفس الصغرى » وقفت « الجينية » تجمع بين الاتجاهين ومن كليهما تتخذ لمذهبها أساسًا .

أخذت « الجينية » باليوبانيشادات وبالسانخية معًا ، و« بالصيرورة » إلى جانب «التعدُّد» قالت ، بل رجح ميلها إلى اليوبانيشادات ميلها إلى السانخيَّة فذهبت مذهب الزهد الساعي إلى إطلاق النفس من عجلة «الصيرورة» ومن ثم تتخذ مبادئ المبادئ الأربع لمذهب «نيرجرانتهاس » ؛

الصدق والأمانة والطهر وتجنُّب القتل

بَيْد أن رأت «الجينية » أن التجرُّد التَّام لا يتمّ إلا بمبدأ آخر أضافته إلى المبادىء الأربعة فكان :

مبدأ التخليٍّ الكامل عن جميع الممتلكات الشخصية !

فرضت «الجينية » على معتنق مذهبها هذا المبدأ الخامس الذي

التخلـي الكلــيّ عن الماديــات وسبـل النجـاة من «كارمـا» والخلاص من « الصيرورة » !

بيد أن المُريد ليتساءل :

وما العمل إذا كـان الـ « كـارمـا » من قبل قـد تسلّل وبكثـافـتـه قد أحاط النفس؟!

وللمُريد يأتي من الجينية الجواب :

لا تيأسنّ ! تحرّر ! بالتحرُّر من الأهواء تستطيع إبادة ما قد تَسلّل ... ازهَد! .. ازهد فالزهد نار معًا ونور! .. نار تحرق الـ « كارمـا » فتبيد ، ونور لظلام الحياة مُبدّد !

إن باب « تاباس » أو التوبة ، أمامك غير مُوْصد وعلى مصراعيه مفتوح !

للانطلاق من بيدق الصيرورة شَرَّعت « الجينية » التخليّ الكامل عن الممتلكات الشخصيّة فارتفع هذا الدين إلى مستوى أخلاقي قلما داناه فيه دين بل إن في أحضان مجتمع أدركت « الجينية » فيه فقر واختلاف طبقات والسبب هو ما قد ابتدعه الكهنوت من نظام الطبقات ، قامت تشرِّع شريعة اجتماعية جديدة عَرَّضَت فيها للتقليد البراهمي القديم معلنة :

سخْف الطقوس وإلغاء نظام الطبقات والمساواة التامة !

امتداد اليوبانيشادات من قبل ومهاجمتها الطقوس تمتد «الجينية» فتستنكر الطقوس وتلغي نظام الطبقات على أسس أنها بدعة والبدعة يجب أن تُلْغَى ! واستنكار اليوبانيشادات نظام الطبقات استنكرت « الجينية » نظام الطبقات بل واتّسعت في هذا المضمار نظرتها فساوت

بالانصـراف عن النضـال إلى السـلام فلديه أنه قلمـا أنتج النضـال إلا النضال وأن السلام يُولِّد السلام !

ولكن ... الدين الجيني ، رغم طهـره بارتفـاعـه إلى ازدراء مظاهر الحياة على اختلاف أنواع بريقـهـا بإخلاده إلى الحقيقة الخالدة في النفس ورغم استْيعابه للفكرة اليوبانيشـادية الخاصّة « بالصيرورة » ، دين ناقص في فهم اليوبانيشـادات فهمًا صحيحًا فهمته تلك الفلسفة التي جاءت في أعقابه قبل أن يُحوّلها التبّع إلى دين جديد نعرفه باسم :

الدين البوذي

بوليـد حـدائق لومـبـيني « ٥٦٠ - ٤٨٠ ق . م » ، الناشئ في أحضان اليوبانيشادات ، الطارق الـ « يوجا » إلى المعرفة اليوبانيشادية طريقًا الممتلئة رئتاه بنسائم « لاوتسية [١] » آتيـة من الصين ، المتُطبّع بالطبيعة الجينية ، مَنْ عليه علمًا غَدَا اللقب الذي خلعته عليه مجامع التُبّع في القرون الأوّل ق .م غداة لقبّته بذي البديهة ليطلع علينا الـ « بودها » أو البوذا وليُطالعنا في سجِّل الأديان دينًا يقف ، وقوف صاحبه في القمة ، في القمة !

أجل ...

إلى مـا وراء البـوذية ، كدين ، نعـود فيـعـود بنا الزمن إلى تلك الشخصية التاريخية الطالعة من العنصر الآري ومن طبقة الخاشترية من قبيلة الساكيا الواقعة شمَال شرقيّ الهند وجنوب نيبال في عاصمتها « كابيلا فاستو ». نعود إلى هذه الشخصية التي ولد صاحبها لبيت جوتاما، من « مايا » لـ «سودو هنا » ، مهراجا قبيلة الساكيا ، أميرا تحت اسم :

سِدَارْتـهـا.. في قَصْرٍ كانت الـ « مايتري يوبانيشاد » ترجـّع فيـه

انتزاعًا ، ومن قمم السؤدد المادي هبط ليرتقي الجانب المخالف استجابة للنداء الداخلي الهاتف به أن يستفيق من هذا الوَهم الذي يسميه الأرضيون الحقيقة !

من ثمَّ فإذا إلى ما وراء البوذية كدين نعود فليس إلاً ليعود بنا الزمن إلى « سدارتها » هابطًا ، من معتليات نيبال ، مهابط بنارس يدفعه إلى أضفة الجانجز صوت يوبانيشادي أسرً له بالسرِّي من التعاليم التي انسلخ بها إلى دنياها عن دنياه ! عن دنيا التاج تخلَّى وإلى دنيا المعرفة خلَى ... خلَى فخلي نفسًا يوجية عطَّرت أرجاؤها أرج اليوبانيشادات !

أجل ... استهلت البوذية تاريخها ، في أحضان صوفية اليوبانيشادات وفلسفة السانخية والجينية دين عهد الصَفْو النفسي والتأمل والسير اليقيني واستعمال « تاباس » وتطويق النفس بطوق الاتحاد عن طريق استعمال اليوجا! .. في عهدٍ بأريج الصوفية عبقت منه أرجاء زادتها على صفو صفوا النسائم الآتية من الصين ،استهلَّت البوذية تاريخها كمذهب إصلاحيٍّ لم يحِدْ عن الأسس الأخلاقية التي دعمَتها الجينية بوحي اليوبانيشادات ، ولم ينحرف عن الغاية التي رسمتها اليوبانيشادات ، بل إن من الخطأ أن نقول هذا القول فما البوذية إلا ؛

إيضاح للتعاليم اليوبانيشادية !

من شفاه « سدارتها » راحت على صفحة بنارس وأضفة الجانجز التعابير اليوبانيشادية خاصة الـ « شندوجيا » و «المايتري » من السجلأت اليوبانيشادية المعاصرة تعلن « التعاليم السريِّة » ولكن ... لئن كان هدف اليوبانيشادات في الخلاص «معرفة براهما» فإن البوذية اتخذت هدفًا ، **الخلاص** ! ...

اتُّخذت البوذية الخلاص هدفًا فتعاليمها تنادي ؛ إن حياة الإنسان إنما سعي في سفر ، ومن ثم على الإنسان الاتجاه إلى حياة داخلية

هذه تعابير يوبانيشادية خالصة وخاصة شندوجية ومايترية ، من السجلات اليوبانيشادية المعاصرة لعهده ، وكلاهما سجل يمحو التمييزات الوهمية بين النوع والنوع والجنس والجنس والشيء والشيء ، فلا تعتبر شخصية كل شيء حدًا فاصلاً بذاته فاصلة إياه فصلاً مطلقًا عن شيء آخر ، وإنما هي ؛ **وحدة الواحد الأحد** .

وهذا « الواحد » هو الحق ولك ماعدا الحق فالباطل وهذا « الحق » هو الحقيقة الكائنة في الكائن الحي التي تتخذ مظهرها المحسوس في صورة الضمير ... والضمير إنما البرهان على أن هذه «النفس الكبرى» إنما حالة في « النفس الصغرى » لا بمعنى أن في « الكل » الكل يمور وإنما بمعنى أن في الكل حالًا « الكلُّ » بمعنى أن « الكل » هوالكل فهو روح الأرواح ونفس النفوس فإنه ،

« الأتمان ! »

بـ « الأتمان » كحقيقة لا تقبل الجدل والشك تعترف البوذية في صحيح رسالتها في الدور الأول قبل أن تتطور تطورًا تحولت به ، بالإضافات ، إلى دور ثان فثالث .. قبل أن تتلقفها من شفاه « سدارتها » شفاه تجري بأسدائها الأجيال فتُحوِّل منها المعاني إلى معان جدّ مختلفة عن تعاليم لسدارتها واضحة وجلية عن « النفس » وعن النفس ...

أجل ... إن «أتمان اليوبانيشادات » كروح عام أو كنفس كونية مطلقة هي الحياة في الكل وليست لأحد خاصةً أو ملكًا إنما الأساس الذي تقف عليه البوذية في صحيح دعوتها والذي منه تتخذ لها قاعدة لتدلي برأي لها أساءت فهمه الأجيال وخاصة في الدور الثالث للدعوة حين قالت بها مفكرة « للاأتمان وللاأتما » وما إنكارها إلا إنكار ألوهة على النحو الذي يُصوِّره الدين الهندوكي وما إنكارها إلا نفس فردية على النحو الذي إلى « التعددية السانخية والجينية » هوَت إليه « الوحدة

ما أنت في حقيقتك إلاّ « الحقيقة السرمديّة » ... ما أنت إلاّ ذلك النور ، وإنما بأغلفة من وهم الجسد والمكان والزمن أنت مغلف ! ..

إن حقيقة الكائن الحيّ هي عالمه الداخليّ .. وهذا العالم الداخلي هو الحياة فيه ؟

والحياة ؟ ! الحياة أبدًا في تشكل ! ..

من ثم يقينا أن واحدة إنما الحياة **غير منقسمة** !

بهذا اليقين يلجّ بنا سدارتها لجُة النفس لنرى أن عن الحياة ترتدّ أردية الردى وعنها ينتفي الفناء ! .. وأن ليس هناك موت بمنعى العدم فالموت إنما موت الجسد ؛ والموت قط لا يمثل إلا:

حَدَثا في حياة النفس ؛

المظهر الخارجي سيفنى وأمّا النفس فستنطلق وستتحرّر حتى تبلغ الغاية التي رسمتها « اليوبانيشادات » فتخلص من نطاق وجود وهمي سرابي ! .. وجود حيثما فيه تلفّت وفي أرجائه دقّقت النظر فلَن ترى إلاّ :

العلامات الثلاث للكينونة

حيثما في أنحاء الكون صرْت وسار منك البصر طالعتك الحركة ... سمة الوجود ، وسَمة الحركة : **التغُيير** ...

مِنْ هذه التلال البعيدة بادية الهدوء ، إلى هذه القمم الشوامخ المترامي لها على هذه السفوح ظلال ، فاللاّسكون ساكن مظهرها ! .. إن قانون التغيُّر ينطبق على كل شيء مُركّب حتى نتاج الإنسان من فِكَر وقوانين وأعمال!

الألم ينحصر في انصراف النفس عن الحقيقة إلى الوهم إلى التمرُّغ في حمأة السراب والاستزادة بالوهم من الوهم ! .. الألم سببه اللاَّشعور بالوحدة الكونية ! ووهم الشعور بالتفرقة سبب النضال والشقاق والحروب !

أصل الألم ينحصر في شعور الفرد بفرديته ، و « الأنا » بأنيِّتها وبأنانيتها وانصرافها بوهم « التعدُّد » عن « الوَحْدَة » ! ...

أصل الألم ينحصر في قبول النفس وهما وهمت ، تحت تأثيره ، انفصالها ، كشيء ، عن « النفس الكليَّة » أو « الأتمان » !

عن «الوحدة» وهمت النفس لنفسها فصلا ، والحقيقة أن ليس لـ «أتما» أو النفس الفردية وجودًا مستقلاً، فإن هي إلا «وحدة الأتمان» وفيها الكلّ يمور مورًا ! . ومن ثمّ ، والحقيقة هي « الوحدة » والوهم هو «التعدُّد» فإن ثالث علامات للكينونة :

«أناتا » = اللا نفس !

تحت هذا المعنى وبهذا المعنى نفت البوذية وجود « النفس الفردية » لا كموجودة وإنما كمستقلة !

وتحت هذا المعنى جاءت البوذية بهذه العقيدة الأساسية لفلسفتها واجبة الفهم على الوجه الصحيح لا كما جرت أقلام ترميها ، وهي فلسفة النفس ، بإنكارها النفس !

كلا ! .

قطّ لم تنكر البوذية وجود النفس الفردية وكيف للنفس تنفي والنفس محور وأساس فلسفتها ؟ بل كيف تنفي البوذية للنفس وجوداً وهي التي عنها تتكلم ذلك الكلام الذي يطالعنا في تحدثها عن :

كل صورة صائر إليها كائن أو فيها كائن كائن فهي للعدالة صورة، وبالكائن الحيِّ ترتحل الحياة عبر ظاهرة الموت من واحدة إلى أخرى ... وكلها ؟ كلها إنما حياة في نطاق الوهم وغلاف الجسد ، عن حياة النفس الخالصة جدّ مختلفة .. من ثمّ من هذه العجلة **يجب الانفلات** ، ومن الألم يجب الخلاص ! لهذا أصبحت الغاية هي :

الخلاص!

يجب تخليص « النفس » الخالدة من هذه الدورة ومن قيد جسد فإن لإطلاقها من عجلة الصيرورة الآتية بالألم ... الألم الذي أدركنا أنه وهم سببه الوجود الشخصيّ وليس الألم إلاّ عنه ناتج .. ويقينًا **أن ليس للألم هناك حقيقة وجود** ، فإن :

« المظهر الخارجي ليس بخالد فليس بخالد الألم فإن الذي يتألم ليس النفس – وما ليس النفس فلا يخصّني لأنه ليس بأنا ، لأنه ليس بنفسي ! » .

من « سامورياتا – نيكايا »

الألم وهم والوهم وليد الجهل ! ... الألم وليد « أفيديا » أو الجهل... «أفيديا» سبب «دوخة» أو الألم في كل صورة من صُوره ! ... والألم ، بجميع أنواعه ، سببه الهوى الهاوي بالمرء إلى بؤر رذائل الجسم ورذائل الفكر وهذه كلها تؤلف :

القيود العشر

إلى عجلة « الصيرورة » الداوي صريرها بما يصمّ المسمع عن العمل بوحي القانون الحقّ « دهاما » أوالذمة تُقيِّد الإنسان قيودًا عشرة خيوطها الجهل!

الرغبة إلى السلام ومن الجهل إلى المعرفة ومُعَبِّدًا هذا الطريق سهلاً ، فسمته :

« الاعتدال »

لا زهد في « الطريق الأوسط » ولا عزلة ... فالزهد للجهل غير مُبيد والجهل إلى المعرفة غير مُوصِّل ، وإنما مسيرك فيه سيكون : **بالعَمَلْ** !

إن « الطريق الأوسط » طريق عملي إيجابي غير سلبيّ - طريق بالحياة نابض ، فإن تحطيم الجهل إنما يُنال لا عن طريق الكفّ عن الأعمال قاطبة والقسوة كل القسوة على الجسد، فهذا إفراط، وكالتفريط الإفراط !

كلاهما ، الإفراط والتفريط ، منحرف عن طريق « الاعتدال » المحتم على السائر فيه إتيان أعمال تضمن منشود الانفلات من نطاق الوهم وحركة هذه العجلة! في « الطريق » الأوسط سيكون مسيرك بالأعمال الآمرة بها :

النفس !

«وفي» الطريق الأوسط» سيكون مسيرك بالكُف عن تلك الأعمال الرادع عنها :

الضمير

والنفس والضمير ؟

لا تأمر النفس إلاّ بعمل الخير ، والضمير لا يردع إلاّ عن عمل الشرّ!..

يقينًا إذن أن الحياة في جوهرها ليست بألم وإنما الألم في الحياة ينحصر في الوهم وأن الإنسان لمرتحل وعمله الحقيقي يتجه به نحو حياة

إن «المعلَم» لك يعلم : « عش كمن يعيش من له النفس نبراس » وإن « المعلم » بك يهيب :

« أصغ إلى المُنْذر الداخليِّ فإنه صوت الحق»! لا تخف وأصغ إلى النفس فإن النفس قط لا تأمر بالسوء ! ... تنبه ولا تخلط ، وفرِّق بين جنح الرغبة وصوت النفس .. إن النفس قطُّ لا تأمر بسوء لأنها هي ؛ « **هو** » !

إلى النفس أصغ فإصغاؤك إليها «لصوته» إصغاء أمَا رأيت أنك متى أتيت سوءًا أنبتّك ولاحقك بالتبكيت منها صوت تسميه ؛ الضمير ؟ !

إن العمل بـ «دهاما» ، أو الذمة ، إنما السبيل الوحيد للانفلات من عجلة الصيرورة ، فالانفلات يُنَال **عن طريق العَمَل** لا في الكَف عن إتيان الخير من الأعمال ! .

إتيان الخير من الأعمال لن يتوفّر لك إلاَّ متى نمت منك المدارك واتّسع بالمعرفة منك الإدراك . إلاَّ متى تَحَطَّم الجهل واتبّع المرء القانون الأخلاقي المُشَرَّع في الداخل وطرقَ «الطريق الأوسط!»

أجل ... إن لهذا الطريق ، ككل طريق ، نهاية ، نهاية ... ونهاية « الطريق الأوسط » تنتهي إلى الغاية التي رسمتها اليوبانيشادات فَتُنال عند ذاك تلك الحالة التي تستقرُّ فيها النفس وتعرف ، لأول مرة ، معنى **السعادة** ! ... فهناك ! .. هناك وراء التغيُّر وتحوُّل الأحوال تقف النفس تغمرها من الطمأنينة لجّة تفنى فيها ذلك الفناء المستطاب في فناء النور ! ... النور الذي تعرِّفه البوذية ، بالبالية ، « نيبانا » وبالنسكريتية نَعْرفه تحت اسم : **نيرفانا** !

هذه هي الحالة التي تبلغها النفس متى إلى نفسها خلصت النفس وتبعت «دهاما» فتحملها ظاهرة «الموت» لا إلى صورة جديدة تبدأ بها

العقل !

إن من لم يسئ إستعمال العقل عرف قلبه حبَّ الكون والكائن وكانت له القدرة علي تطبيق فكرة « الإخوة العالمية » عمليًا .. وعنذاك ، بتطبيع فكرة « الإخوة العالمية » عمليًا ، نكون قد ارتقينا إلى الدرجة الثالثة :

« ساماڤاشا » = القول الحق

القول الق إنما هو القول المنحصر في عفّة اللسان والترفُّع عن النمائم والصمت عن الوشايا ... ومتى تمّت لنا المقدرة على القول الحق ارتفعنا إلى الدرجة الرابعة :

« ساماكامانيتا = العمل الحق

هذه هي الدرجة الممثّلة محور التعاليم البوذية لأن البوذية ، كفلسفة وكدين ، فلسفة عمل ودين عمل لا معتقد نظريّ ونظر .. وهذا العمل إنما ينحصر في تكاليف ، منها السلبي ومنها الإيجابي ، فالتابع « السبيل الثماني المعارج » مُقيّد « بالدهاما » ، بالقانون الأخلاقي الداخليّ الذي تُكلّف تكاليفه في هذه الدرجة ،الدرجة الرابعة من السبيل الثماني المعارج، اتّباع :

السنن الخمس

السنن الخمس تنحصر في اتباع هذه المبادئ: لا تقتل ، لا تخن ، لا تزن ، لا تكذب ، تجنّب الخمر !

أجل ... قلّما خلا دستور أخلاقي من هذه السُنن بَيْدَ أن في غير هذه المعاني فإن النهي عن القتل الذي يأتي في مقدمة هذه السنن الخمس نهى شامل فإن « سدارتها » يرى أن الحياة نفحة قدسية في كل صورة

القائلة بفكرة الخلق الفدائي ، وأعلنت المساواة التامة ، مساواة تُلْغَي فيها الممتلكات الشخصيّة ويضحى الفرد للكل الكلُّ للفرد ، ونادت أنها :

الإخوة العالمية !

إن الأخوة العالمية ، في البوذية ، نظرة إصلاحية لا تقوم على أسس فلسفة اقتصادية وإنما على أسس صافية من صفو النفس .. ! نظرة بها أتت هذه الحِكْمة الحكيمة التي جاءت تحرِّم على الفرد اعتبار نفسه جزءًا منفصلاً عن الكلِّ ! إذا اعتبر الفرد نفسه جزءًا منفصلا عن الكلِّ فإنه قد ارتكب « إثم التفرقة » الجلاّب للشقاء في كل صورة من صوره !

هذه أولى السنن الخمس، عقيدة الإخوة العالمية ... وعلى نفس الأسس من عقيدة «الإخوة العالمية»... تجري السُنَّة الثانية المحرِّمة الخيانة فتكلِّف المريد أو المتخذ البوذية دينًا أن يَعِد:

« إنى أعد ألا أستولي على ما ليس لي فيه حق » وعدٌ يشتمل على كل صورة من صور الخيانة في القول والنيَّة والعمل ولمَّا كانت هذه الصُوَر من الوسائل إلى الإثراء المادي فقد أعلنت البوذية ؛

تحريم الثراء المادي على البوذي

حرٍّمت البوذية على البوذي الثراء الماديَّ ولكن ليس بمعنى تعطيل الحياة الاقتصادية وشل حركتها وإنما بمعنى تحريم استعمال الفرد لماله الخاص لمتعه الشخصية فإن على البوذي غير محرَّم طَرْق الطرُقْ المشروعة للإثراء وله أن يثرى حتى إلى أى المدى شاء وإنما حرام عليه صرف ماله الخاص في خالص متعته طالما يذكر قول « سدارتها » :

«ليس في الثراء للإنسان استعباد وإنما في التمسك به ... إن

الصيرورة ، إنما أثر سيتلاشى في خضم الـ « نيرفانا » ولهذا تساوي البوذية المرأة بالرجل وتراها صنوه ساعية في سفر ونحو «الحقيقة السرمدية» مثله هادفة ... ومن ثم كان تكليف البوذية للمرأة بالتزام التكاليف التي بها قد ألزمت الرجل وتحتيمها عليها وتحتيمها عليه اتباع السُنَّة الرابعة المحتمة عفة الجسد وعفة اللّسان وأهم مستلزمات عفة الجسد ؛ الطهر وأهمّ مستلزمات عفة اللسان الالتزام بالسنُّة الرابعة.

تحريم الكذب!

تحرِّم البوذية الكذب وتنادي إليها الإنسان قائلة ؛ حرِّم على نفسك الكذب في كل صورة ، من صوره فحتما على المرتقي الدرجة الرابعة من « السبيل الثماني المعارج » أن يكون قوله القول الحق ! .. أن يكون إنسانا واقعيا يقول الحقيقة أبدًا وأبدًا لا يخدع إنسان – ومن ثم فإليك مسندًا هذه القاعدة التي بناها لك في الدين الصوفي «سدارتها» :

« لا تسمع شرًا ، لا تر شرًا ، ولا تتكلم شرًا » !

«سدارتها »

هذا هو الشيء الذي تتطلَّبه منك الدرجة المحتمة عليك استعمال العقل في كل أمرك ... وليكن العقل أداة صالحة للحكم استنَّت البوذية السُنَّة الخامسة فقالت ؛

تجنُّب الخمر !

الخمر للغرائز وقُود .. لا تفرط في الخمر فإن الخمر عن «الغاية» إنما انحراف ! .. هذه هي السنْنْ الخمس ..

علينا الالتزام بتأدية هذه السنن الخمس فإننا متى أديناها تمام الأداء ارتفعنا في «السبيل الثمانيٌ المعارج» إلى الدرجة الخامسة :

« ساما – أجيفا » = العيش الحق

ولكن ... هذه الدرجة ثنائية ، فالأدنى : « ديانا » = التأمل الحق – وأمَّا العليا فأعتاب:

النيرفانا!

عن طاقة مختزنة فجَّرت العصمة الأخلاقية لها قوى فتفجرت عن مقدرة لا يفهمها مَنْ عن هذا الطريق بعيدًا يعيش ولكن ! ... إنك لواهم إذا ظن منك الظن أنك للغاية قد بلغت وللجَّة قد لججت ، فإنك مازلت على شاطئ « النيرفانا » ! ..

على شاطئ « النيرفانا » الآن تجد نفسك لتجد حقًا أنك كنت المُحارِب في حرب شنَّه « «البودها» ، كما للتبَّع بهذه الصفة نادى عندما مَنْ حوله تنادوا سائلين :

« المُحَارِبون ، المُحَارِبون هكذا ، أيها السيد ، اسمينا ! ...

– أيها الإخوان ، إننا نشنُّ حربا ولذلك فاسمنا المُحارِبون !

– لأي شيء أيها السيد نشنُّ الحرب ؟

– لأسمى الفضائل لأمثل المُثُل.. للحكمة العليا !

لهذه الأشياء أيها الإخوان نشن حربًا ولهذا فاسمنا : المُحارِبون !

من « انجورانا – نيكايا »

في ساحة الجهاد قد كسبت منك النفس المعركة ومن ثمَّ ارتقاءك «الدرجة الثامنة» من « السبيل الثماني المعارج » وهذا الارتقاء دليل على انتصار بلغ بك هذه المكانة التي تجلَّت فيها لك غاية إليها بعد لم تصل ولها بعد لم تبلغ فإنك مازلت على شاطئ النيرفانا وبينك وخضمَّها، كفاية، تقف :

المستويات الأربع

لا يفصلك عن هذه « الغاية » إلا هذه « المستويات «الأربع» المثَّل

لقد جرّبت الآن !

عن طريق « التجربة » تحقّقت الآن وهْمًا يقول بنفس فردية مستقلة عن « النفس الكليَّة » تحقّقت ، فتحققت أن التمسُّك بالـ «أنا» سبب الأنانية والأنانية سبب الألم !

عن طريق التجربة تحقّقت الآن ألاّ شك في حقيقة «دهاما» ... وبالتجربة أدركت أن ليس لك أن تؤمن بشيء ما لم تقدك إليه المعرفة.. إن «سدارتها» لك يُعلِّم ؛

أن الواجب يقضي بألا يؤمن الإنسان بأي قول من السلَف إليه دلف ، أو بِنَصٍّ مكتوب في صحف أو مؤكّد بموروث التقاليد ما لم يعمل فيه العقل بالتقص.. والسبر !

كلا ...

لا تدن لمحض أنه لآبائك دين ! .. لا تُقدِّس كتاباً أورثه مقدّسًا لك الآباء ..!

كلا !

لا تكُن في أمرك مُقَلِّدًا بل متحررًا ابحث وامحص وفكّر بنفسك لنفسك !

إنك عن طريق « التجربة » قد تحقّقت بنفسك « الوحْدة » الرابطة بين « الكل » والكل ومن ثمّ فعن طريق التجربة قد تحقّقت ضلال الطقوس.. وإلى مَنْ تَذبح الضحايا وتؤدّى الطقوس ؟

ألغُفْران إثم ومَحْو ذنب ومطلب يُطْلَب ؟ !

إذن فاعْلم ؛ أن الحكمة من هذه المعتقدات تَسْخَر ولك متسائلة تسأل : كيف تريد فصل السبب عن المسبب والنتيجة عن العمل ؟ !

تقع جريرة الآباء ! فإنّ البوذية التي لديها الكلُّ سواسية تجعل كلّ عن عمله المسئول!

كلا ! لا تَغسل دماء الضحايا منك الخطايا ، ولا لأثقالها عنك رافع منك أداء طقوس - قربانك للتقرُّب ليس دمًا وإنما عمل وليس صومًا وإرهاق الجسد فإن التناه والتشديد في «تاباس»، خطر قاساه « البودها » ودون جدوى له وَجَد ... وإنما إذا أردت التقرُّب فعليك ألاّ تأخذ النفس بالشدّة وأن تسير في طريق الاعتدال!..

كلا .. ليس بصلاة يؤديها الجسد تَنال القُرب فبون بيّن بين صلاة اللفظ فيها مصطلح صيَغ والحركات فيها قيود ، وصلاة من عميق التأمل يرسلها تأمل عميق !

عن مصطلح الصيغ أشِحْ ومن أسر ماديّ الحركات تَحَرَّر فالعبادة الخالصة إنما التأمل! تأمُّل الكون والكائن حتى يصبح منك المظهر الخارجيّ مرآة تعكس النفس منك في الداخل!..

هذه هي الصلاة الصحيحة ... التسبيح فيها السَبْح في لجج الوجود ! كلا ... لا مكان هناك تُؤدى فيه العبادة فليس للإله مكان ليست البيوت ، التي تضعها وتقيمها معابد ، لبراهما مكانًا فمكان براهما : «عالم براهما» وعالم براهما هو: **أنت** ! ..

من ثمَّ .. إذا إلى عبادة الإله هزّتك أشواق وإلى الاتصال به انعطفت منك العاطفة وتأجّجت منك النفس بحبّه ولَهًا فلجَّ من نفسك لجة النفس !

كلا ... فى طيّات النفس لا تنطوي بل لطياتها انشر وأمعن الفكر في المعنى اليوبانيشادي :

بيد أن حذار فإنك بعد لم تبلغ « الغاية » ... إنك بعد لم تبلغ «النيرفانا» !

أجل ... إلى العالم الأرضي لن تعود من هذا المستوى وإلى نطاق جسدي كهذا لن تصبر، بيدأن مازلت ، بهذه المكانة ، في داخل الحدود وإلى فسحة الحقيقة بعد لم تنطلق ! . مازلت في داخل تيار وهميٍّ فهذا المستوى إنما مكان وكالعالم الأرضي عالم ، له ، كزمنه ، زمن ... وله ، كمكانه ، مكان ، وليس عن الأرض بمختلف إلاَّ في طبيعته فطبيعته النِعَم والنعيم وفيه ستحيا بجسد كالجسد الذي ألقاه عنك هنا البَلَى ولكنه أشفُّ وأبقى وأكثر احتمالا فدهورٌ عنك في هذا المستوى ستنقضي مرحًا في ظلال النِعَم والنعيم .

ولكن ! ..

لا يتســرَّبن ظنك إلى جنةٍ ، كجنة إندرا ، وبك الظنون إلى جنَةٍ كالجنة تطيح فهذا إثم قد غدا لفكرٍ عرف قيمته وأدرك للفكر قِيَما وسَبر للفكر لذَّة ونعيما !

بَيْد أن الحياة في هذا المستوى ، التي إذا قيست بالأرضية فالمُنْتهى ، إنما في نطاق التيار الوهمي مازالت فما زالت منك النفس فيها بغلاف من وهم الجسد مُغَلَّفة وبها سراب المكان والزمن محيط ... بينما وراء هذا المستوى يقع؛

عالم الحقيقة

عالم الحقيقة هو عالم اللامكان واللازمن واللاشكل ! ... هو ؛ عالم النفس! .. هو، الخضم النوري ، لجة اللأنهائية ! ..

لهذا العالم ، عالم الحقيقة ، ستبلغ حين تكفُّ تمامًا عن ارتكاب

في هذه الدنيا دنيا النفس حلّت أنت منك « الشخصية » فذابت ..
كل شيء تلاشى ماعدا النفس ! .. ولكن ! .. أين ، وما النفس ؟

عبثًا عن النفس تبحث النفس وعبثًا تُحَاوِل النفس لنفسها لمسًا فلا تلمس لنفسها إلا : اللا كيف وإلا اللاكمَ !

ليس للنفس كم ولا كيْف ، ! .. ليست هي بالجوهر وإنما نور ! .. ليس النور شيئًا محدودًا له كمٌ وكيف وإنما هذا النور هو كل شيء ولا شيء ! .. فإن هذا النور إنما في « نور » نفسه كل شيء ولاشيء ! .

مزيج عالم « الأتما » وعالم « الأتمان » ، وغير مفصول !

بوَهج الوحدة اللا فاصلة توَهُّج الوجود ! .. لا فواصل تفصل بين «نفس كبرى» و«نفس صغرى» ولا حواجز عن « النفس الكبرى تحتجز وتحجز » « النفس الصغرى » – «بالنور الكلي» امتزج « القَبَس النوري » وفي الخضَّم شعٌ فشعَّت من الإنسان الحقيقة !

احتوتك الآن « النيرفانا » تمام الاحتواء وفي رحاب « النيرفانا » صرت فخلصت تمامًا من عالم الأضداد ! ...

كلا ... لم تنطفئ منك، في هذه اللجَّة ، الحياة فليست « النيرفانا » إطفاء الحياة !... ليست « النيرفانا » إطفاء الحياة الفردية في «الحياة الكليَّة»!.

بَيْد أنك لتسائل ؛ من ثمَّ ما هي « النيرفانا » ؟ « إنها حالة ، أيها الإخوان ، عدمٌ فيها الأرض والماء والنار والهواء ! .. عدمٌ فيها لا نهائي الفضاء ، وعدم فيها أيضًا الفراغ ...

حيث لا يوْجَد هذا « العالم » ولا ما وراء هذا العالم من عوالم ...
حيث لا يُوجد قمر ولا شمس ... هناك النيرفانا ! ..

كلا ... ! لا أحد لك إلى هذه الغاية يقود إلاً ؛ نفسك !

كلا ! ...

لا مُخلِّص لك من ربقة « الصيرورة » سوى نفسك فإن « البودها » ليس بمخلص وإنما للخلاص قد أراك الطريق .. أراك طريق وسائل ولوجه تنحصر في إنماء المبادئ المنيرة في الداخل حتى الإشعاع وبلوغ الكمال عن طريق الإعداد النفسيّ ... فخذ النفس للطريق مشعلاً :

« وعش كمن يعيش من له النفس نبراس ! »

« البودها »

من الإمكانات إلى الفعل وإلى تمام الاستنارة للنفس يقع الطريق الذي شقَّه البودها فإن البوذية لا تعتمد في جوهرها على معونة قوة خارجية يُنْتظر إلهامها أو تجلِّيها وإنما تعتمد على المجهودين النفسي والعملي للفرد ، فالبديهة تكمن في كل كائن لأن كل كائن إنما من تلك «الحقيقة السرمدية» قَبس - فليس في البوذية فكرة وحي خارجي أو وَحي مُنزَّل فإنما الوحي لديها يتلخص في أنه للنفس تفتُّح وصعود حتى تنمو وبعد « أفيديا » تنال « أبهى سامبادهي » كما نال البودها بعد أفيديا « أبهى سامبادهي » أو المعرفة !

بهذا التحديد تدلف بنا البوذية إلى : مشكلة الوحي الهابط والوحي الصاعد..

الوحي في البوذية هو تفتُّح البديهة والاستجابة إلى **ما هو موجود في الكون أصلاً** - الوحي إنما ارتفاع بالنظر إلى ماهو موجود أصلا في الكون - الوحي ، تماماً كالمعرفة ، غير مقصور على واحد دون واحد فالمنطق العقلي ليأبى للألوهة أن تختار فرداً بين أفراد

كلام البشر ولا للبشر تَتَجلّى .. وللبشر برسائل خارجية الألوهة لا ترسل !

إن هذه « الرسالة » بأدائها قد صَدَع سِدارْتها لا بأمر خارجيّ ووحي منزّل وإنما بوحْي داخليّ .. من منبع النفس !

هذه هي الرسالة الدينية التي قضى سدارتها » نيفا وأربعين عامًا على هذه السفوح بتعاليمها مبشرًا ، لا كما تطوّرت من بعد وإنما كما تركها للناس عامةً تعْلن جهرًا « التعاليم السريّة » ، فأقامت صرحها على أرسخ قواعد صوفية تقوم منها الأسس في أعماق لجة النفس .. رسالة جاءت ، للناس عامة، بالحبِّ وشقّت لهم طريق الخلاص من الألم ، ولهذا أتى منهجها الفلسفي ومذهبها الروحيّ بدين واقعيّ إيجابي تُرك خيارًا لمن بينهم طوّف من قد أرسلهم «سدارتها» من مُبشرّين يهدون إلى «الدهاما» أو الحق باسطين يد المساعدة لمن قَبِل «الدهاما» واستعدّ لاجتياز « الطريق » مردّدين لسدارتها تعاليم .. تعاليم سجلت على شفاه التُبّع كما تركها سدارتها بينهم شفويًا .

أجل ... إن سدارتها لم يترك نصًا كتابيًا ولم تدون له تعاليم إلاّ بعد حوالي ثلاثة قرون من الزمن ، فحتى المَدَى ظلّت تحفظ بين التُبّع تعاليمه لتتذاكر كما استذكرها علنًا الحفّاظ الأولّ في «المجمع الأول» الذي عُقد بمجرّد وفاة سِدارتها تحت رياسة التابع الأقدم «كصابا»...

كلا ... لم يتنازع «المجمع الأول» أمرًا ولا اختلف شأنًا وأمرًا في خلافة .. وإنما تلى «أوبالي » الناحية الخاصةّ بالقوانين أو المبادئ التي جُمعت من بعد على حِدَة في سلةٍ واحدة ، كما جاء عنها التعبير ، فكانت هذه المجموعة التي نعرفها تحت اسم :

فقد اقتصر المجمع الأول والثاني على تعريفه بساكياموني أو حكيم الساكيا ومن النعوت المسجلة له غضون تلك الفترة الزمنية ، النعوت الشائعة المتداولة زمن ذاك لكل « بهاجفان » أو السيد ، ولكل « ساتهار » أو المعلم ، فإنه يطلع بانفضاض « المجمع الثالث » تحت لقب « البودها » وصاحب رسالة انقلبت من فلسفة إلى دين ! ...

أجل ... منذ اللحظة التي انعطف فيها إلى هذه الفلسفة «بيادازي» وفي سلك التُّبَّع انخرط ، ولقُب بـ «أسوكا» أو البعيد عن الحزن ! ... تحولت ، تبعًا لتحوله ، البوذية من تعاليم متداولة في الشمال الشرقي إلى دين رسمي للهند قاطبة !

وعلى هذه السفوح رفّت البوذية دينًا رسميًا أقرّت مبادءه روح السلام فرفّ السلام على الهند وعرف تاريخها السياسي خلال حكم أسوكا ، لنيف وربع قرن من الزمن ، استقرار النفس وباستقرار النفس عرف معنى السعادة...

وكدين محوره « البودها » امتدّت البوذيّة امتداد الظلّ السياسيّ الأسوكيّ ، بل وامتدّ لها ظلاً إلى خارج أرضها فقد انسابت بالمبشرّين إلى خارج أرضها كدين هداية تزعّم الهداية إليه « أسوكا » ...

على صفحة التاريخ مازالت واضحة غير باهتة تلك الرسائل التي أرسلها « أسوكا » هادية إلى « الدهاما » أو الطريق المستقيم .. رسائل تنطق بفَحْواها الأعمدة التي أقامها «أسوكا» مسجلا عليها هذه الإرساليات التبشيرية إلى سوريا وإلى مصر وإلى مقدونيا ...

ولكن ! .. منذ أصبحت البوذية الدين الرسميّ للهند ، وإلى الوراء

السلف فقد شطّ التفكير فيها بتقديسها للبودها شططًا عن النصوص الأصيلة ... فأولت وحوّرت حولت النصوص إلى ما يُوافِق جديد اتجاهها، ومن الحجج اتخذت هذه الحجة القائلة بأنها لقديم النصوص لا تنكر وإنما للتشبُّث بحرفية النصوص تستنكر وأنها ، بين الأحزاب قاطبة ، القادرة على فهم تعاليم « البودها » وأن مذهبها ، بين المذاهب طرًا ، المذهب الصحيح القائد إلى الخلاص ! . وبهذا الإعلان ، إعلان أن مذهبها هو العارف الطريق الصحيح القائد إلى الخلاص ، لقّبته :

«ماها – يانا» أو الطريق الأكبر ولقبت المذهب القديم «هنا – يانا» أو الطريق الأصغر

انقسم الدين البوذي ، بهذا الانشقاق ، إلى طريق أصغر وطريق أكبر ... إلى الشمال جرى الواحد وإلى الجنوب جرى الآخر – ولظنّ «المهايانا» أنها أفهم للتعاليم، مثلت « الهنايانا » « بالعين » لِتُمَثل نفسها ؛ « بالقلب » ...

و « بالعين » و « بالقلب » طلعت بوذية الشمال تختلف جوهريًا عن بوذية الجنوب فإن كان لكل منهما « البيتاكا » كتاب لا يُختلف فيه إلا من حيث المعاني وإن كان لكل منهما «البودها» محور لا يُختَلَفْ فيه إلا من حيث الطبيعة وإن كان لكل منهما البوذية دين فإن الحقيقة هي أن هناك اختلافًا جوهريًا وتباينًا أساسيًا في أسس العقيدة الدينية فللواحدة التقديس خضاب بينما الأخرى خضابها التأليه الذي سجّل :

الدين المفلسف أو البوذية في صورتها المتأخرة تأليه « البودها »

و« عقيدة التجسد » وعقيدة المخلص ابن العذراء »

عن «المذهب القديم» المُحَمِّل الكائن الحيّ تقدير ذاتيته، أعرض «المذهب الحديث» إلى سنّة جديدة استنّها بإعلانه أن :

الحديثة أو البوذية المُؤْلِهة « البودها » فأظلّت وامتدّت ، ديانة في الأصل تبشيرية ، إلى عالم الشرق القديم ودنيا القرن الأول قبيل المسيحية ، حيث راحت تُبَشّـر عن نفسها دينًا محوره شخصية هي :

كلمة الحكمة المتجسّدة على الأرض

وبهذا التبشير أصبح البودها رمزًا للإله المخلّص الذي إلى الأرض من حين إلى حين يجيء **متجسّدًا في صورة بشرية** لإنقاذ البشر ! ...

وعانقت القلب هذه العقيدة وراحت الشفاه تقص عن «البودها» مِنْ القصص قصصًا نراها اليوم على الجدران مُسَجّلة – ومن هذه القصص تلك التي تقول إن بمولده قد تنبأ المتنبئون ، وسباقًا بينهم كان « أزيتا » ... وإن الملائكة قد بشّرت به أباه قبل أن تحمل به أمه **عذراء** ...

وهكذا يطلع علينا سدارتها في سجّل التاريخ الديني وله لقب:

« ابن العذراء مايا » !

وتسير الشفاه تقص واليد على الجدران تُسجّل: إن؛ بمولد « ابن العذراء » ابتهجت السموات ... بالأناشيد دوّت أرجاء الملكوت الأعلى طربًا لِمَنْ صبيًا أذهلت حكمته الشيوخ !

وإن شابا خلال صومه تسعة وأربعين يومًا حفّ به التحريض من «مارا» أو روح الشر أو الشيطان ، ووعده ، لقاء تحوله عن التبتّل ، «الهملايا» ذهبًا ... ولكن ! صادعاً برسالته سَارَ « البودها » ، محاطًا باثني عشر تلميذًا ، يُطوّف ... وفي تطوافه أنجز اثنتي وثلاثين مُعجزة شفاء – ومن رغيف واحد له بارك أطعم حشدًا من الناس مؤلّفًا من خمسمائة ! .. وإن إليه هوت أفئدة راعها منه كلام انحصر في ضرب الأمثال بينما روعت أفئدة خشت منه السلطان فتآمرت عليه وإلى المتآمرين انحاز « ديفادانا » أحد التلامذة الأتباع ! ..

البراهمية نعتلي سابق مكانتها بعد ذلك التفكك اللاهوتي الذي أصابها في داخل النظام الديني ، رأت هذه الطائفة المتعهدة الدين أن الدين البراهميّ قد بدأ يفقد مكانته بالمذاهب العابدة فشنو وشيفا ومن ثمّ لم يكن بدّ لاتقاء هذا التصدع إلا إعترافها بأحقية المذهبين وإدماجهما في نفس بناء الدين الهندوكي وهكذا عاد يتدفق من جديد قويًا هدير ذلك التيار القديم الذي بدأ تحدُّره منذ عهود «الريجفادا» مدويًا باسم «شيفا» إلى جانب ذلك التيار الآخر الجاري باسم « فشنو »

أجل ... لقل لجّت عبادة « شيفا » الطقوس الهندوكية ولجّ المذهب الشيفي الدين الهندوكي ... وإلى أرجاء من القلب البشري تسربت محبة شيفا غداة حوّله محبوه من رمز دمار وتدمير إلى رمز محبة وحب ، بل وامتد تحت هذه الصفة جارفًا فاجترف إليه من مُسطري اليوبانيشادات المتأخرة طائفة ما غمرت محبّته منها القلب حتى تسارعت نبضات هذا القلب تنبض باسمه إلهًا، فأعلنت هذه الطائفة توحيده ببراهما ذلك التوحيد الذي بدأت به خطوات شيفا تتجه نحو العرش الإلهي ، لتلتمع ، كأثر لهذا الاتجاه ، تلك الأضواء التي تنتشر على صفحات الـ «سيفيتا سفاتارا بوبانيشاد» .

ولكن بين « شيفا » وارتقاء العرش الإلهي يحوُل الآن ذلك الدويّ الذي أرسله الكهنوت الفشني بنداء رجعّته عن أرجاء الشمال أرجاء الجنوب أصداءً ترجّع للاهوت الفشني دوّى أقلام : أن فشنو هو سيّد الحب ، فإنه هو الذي على الأرض لخلاص البشرية قد تجسّد !

نداء ، به يطالعنا في سجّل التاريخ الديني ؛

دخول المذهب الفشني في الدين الهندوكي بإبراز عقيدة حلول اللاهوت في الناسوت وانبثاق عقائد ؛ « افاتار » أو الألوهة المُتَجسِّدة .

إن في كريشنا قد تجسّد « فشنو ! »

من غَيمْ الزمن طلع اللاهوت الفشني بكريشنا .. وإلى كريشنا التفتت الهند ولكن لا لترى كريشنا كما كان على حقيقته شخصية تاريخية وإنما لترى فيه شخصية إلهية فيها يتراءى فشنو !

تحت أضواء التاريخ نقترب من « كريشنا » فنراه شخصية تاريخية تدُل على وجودها المدوّنات الأثرية وسجلاّت النحويين ، ولتنحسر هذه الأضواء التاريخية عن كريشنا فنراه غداة نشرته راحة الزمن على الشاطئ الغربي من « ميسورا » ، حوالي القرن الخامس ق .م ، كحاكم أقام في تلك البقعة من الأرض له ملكا منه أشرف على الدنيا للدنيا يستعرض عهدًا كانت فيه سيلا تنساب سيول اليوبانيشاديين وتوّشى المروج الخضر الثياب الصفر فرأى المعرضين عن السراب الدنيوي واسترعاه هذا الإعراض الذي قاده إليهم يطلب منهم جليّ الأمر ، ومُسائلا وافته يد كانت تجري بتسطير الشندوجيا من اليوبانيشادات بالردّ .. وبين الحكيم والحاكم - بين كريشنا والبراهميّ اليوبانيشادي « غورا أنجراسا » تمّت تلك المقابلة التي نسمع الخبر عنها في فصل قصير من الشاندوجيا في صدد تحدُث أنجراسا لكريشنا عن «براهما» وتعريفه له : إنه اللافاني لأنه النفس !

وعملت التعاليم اليوبانيشادية عملها في نفس كريشنا فتحوّل ، تحت تأثيرها وبدافعها ، يقبل العقيدة اليوبانيشادية القائلة بخلود النفس و « دهاما » لتمثل ، عقيدة الخلود ، المحور من تعاليمه ، كما يمثل «الدهاما» اليوبانيشادي مبدأ محتومًا في تعاليمه ومرعيًا .. وهذه نتيجة كانت طبيعية ومحتومة فإن التفكير اليوبانيشادي بالوحدة الحلولية التي

اليوبانيشادية التي برز بها على صفحة عهده ولكن ! .. كما تسير الأيام بالأيام نرى كريشنا قد تحوَّل تحولاً غدت له من الصفات تلك الصفة الرسمية التي عرفت له في القرن الثاني ق.م وأصبح تحتها يُنادي ؛

« كريشنا روح الإله»

وعند هذه الصفة لكريشنا لم تقف الأيام بل ، والزمن يسير من القرن الثاني ق . م إلى القرن الثاني ب . م ، نرى كريشنا قد تحوَّل من روح الإله إلى ؛

الإله المتجسِّد على الأرض إن الزمن كما بيننا وبين « الشاندوجيا » يُباعد يبعد بنا عن الصورة الحقيقية لكريشنا حتى تلفُّه بكثافتها القرون! حَجَبَتْ المخيلة الدينية للاهوت فشنو حقيقة كريشنا ونسجت من حوله خيوط الأساطير، وبهذه القصصْ الخيالية مكنت في القلب الجماعيِّ محبة فشنو عن طريق استعادة ذكرى هذا الحب بكريشنا فإن « كريشنا » الذي لم يك في عهد « الشندوجيا » لتعرف له من الصفات إلا صفة «سدارتها» أو المُعلِّم والذي لم يك إلا : « بهاجفان » أو السيد .. إنما قط لم يُلْحَق باسمه ما قد لحقت به من بعد من صفات غَدَاة حولَّته اليد الكهنوتية إلى «ديفا» ثم إلى « ديفا – ديفا » أو رب الأرباب وأدخلت في نظام البناء الديني عبادة له خالصة وأقامت باسمه المعابد وألهبت في القلب جذوة الحب الفِشني بندائها للخُشَّع: إن

كريشنا لفشنو « أفاتار » !

كـ « أفاتار » أو صورة متجسِّدة لـ « فشنو » يطلع علينا «كريشنا» عبر الأجيال .. غاب كريشنا التاريخ وطلع كريشنا الدين ! .. دينٌ راح

يتولّى أمر القيادة .. وهنا تسترسل هذه القصة وتقول إن في تلك الليلة ، ليلة المعركة الفاصلة ، كاد يحجم « أرجونا » عن القتال وعن مواصلته مُقلعًا لاستشعاره فظاعة إراقة الدماء بين الإخوة لولا دفع كريشنا له بتعاليم بها أسفر له عن نفسه ككائن عالمي فيه الكون منعكسًا يمور ! ...

وهكذا تجري القصة الطويلة التي بدأت في غسق القرن الخامس ق . م لتكبر وتتضخّم لأكثر من ألف سنة بما أُدمج فيها وما نفسها له قد اتّسعت من مذاهب داخل الجدران الهندوكية حتى نمت إلى راهن حالتها لتشتمل على مائة ألف بيت شعري ، لا يهمنا منها إلا ذلك الجزء المصطلح عليه كحديث بين أمير الـ « باندافا » و« كريشنا » في تحدثه إليه عن نفسه ككائن عالمي فيه الكون منعكسًا يمور ... فهذه التعاليم هي التي تؤلف الآيات التي كونت الـ «بهاجفادجيتا» أو أقدس الكتب المقدسة الهندية قاطبة فقد اعتُبر الكلم الكريشني ، تحت هذه الصفة التي عن نفسه فيها قد كشف لأجرونا ، كلما إلهيًا .. وبدافع هذا الاعتبار امتدت اليد اللأهوتية تفصله عن القصة ، وبانفصال هذا الكلم إلى كتاب ، قام بإسم كريشنا مذهبًا قام في الدين الهندوكيّ وما زال فيه حتى اليوم يقوم!

أجل ... لإبراز «فشنو» بدأ تحوُّل كريشنا إلى المصير الذي صيَّره إليه الفشنيون عندما في خضَمّ التطاحن على عرش السماء بين « فشنو » و « شيفا » حاك اللأهوت الفشني هذه البدعة ، وفي القرن الثاني ق .م قال :

إن لإنقاذ الكون وخلاص الإنسان وُلد من جديد «فشنو» على الأرض، كابن للمصطفاة بين نساء العالمين العذراء « ديفاكيّ » ، في صورة كريشنا !

ردّد هذا الترديد زمن ما قبل الميلاد المسيحيّ وما بعده بغاد ورائح من وعلى هذه السفوح ، فردّد الشرق القديم معتقدًا رسخ في مخيّلته في خلال تلك الفترة التي بدأت تلحق بكريشنا من الأساطير تلك الأسطورة التي طلع بها تحت صورة الطفل الإله أو **الإله الطفل** .

بين أدب الخاصّة وأدب العامّة تميد هوة سحيقة - الصّنو بين الـ «بها جفاد جيتا» وبين ذلك الكتاب الشعري للأدب الشعبي الـ « بوراناس » الذي يطالعنا على صفحاته كريشنا تحت صورة تختلف كل الاختلاف عن الصورة التي يطالعنا بها في الـ «بها جفاد جيتا»

كريشنا الـ «جيتا» شيء ، وكريشنا الـ «بوراناس» شيئًا آخر حتى ليختلط الأمر اختلاطًا يحسب به المرء أنه أمام شخصيتين متناقضتين مزجتهما الأجيال إلى واحدة ، فعن كريشنا « الجيتا » يختلف كريشنا «البوراناس» بأنه صورة ساذجة من تفكير ساذج جبلّته الفطرة فالبورناس تصوّره قائلة ؛

إن الإله اصطفى « ديفاكي » ليحلّ فيها روحًا ، وبهذا الاصطفاء ولِدَ الإله على الأرض كابن للمصطفاة العذراء في صورة الطفل كريشنا،.. وراح كريشنا يمرح حياته طفلا بين مراعي« فراجا » حتى نما وغدا صبيًا وصبيًا كان كلامه بين الشيوخ الحكمة ! ...

من قصص المذهب الكريشني هذه القصة المترعة بالتحدث عن كريشنا تحت صورته كطفل إلهي وإله طفل ولتثبيت هذه الصفة ، تقص ؛

« منذ كان كريشنا رضيعًا كان مصدر بهجة لقلب أمه.. وحدث يومًا ، وهو مازال رضيعًا ، أن وضع في فمه طينا فزجرته أمه وعند ذاك تكلم قائلا : أمي انظري إلى فمي !

أجل ... بين الوحدَة الصوفية اليوبانيشادية والتجسُّد الديني الهندوكي يجمع المذهب الكريشني فيجمع بين عقيدتين متنافرتين بأحقية كلتيهما يقول كتابه المقدس ... فعن عقيدة التجسُّد يتحدث هذا « الكتاب المنزَّل » قائلا : قال الرب: « عندما يهوي العدل وتقوم اللاّعدالة حينذاك أقذف نفسي ! لإنقاذ الخير ومَحْق صانع الشر ، لإقامة العدل أُوْلَد من عهدٍ إلى عهد»!

من « البها جفاد جيتا »

وعن عقيدة الوحدة يتحدَّث هذا « الكتاب المنزّل » قائلاً قال الرب :
« من نفسى قذفت كل هذه الكائنات !
لا إرادة لهم في ذلك فذلك بمحض طبيعة طبيعتي ! ... »

من « البها جفاد جيتا »

مزيجٌ متنافر تجري به في تيار الدين الهندوكي عقيدة الوحْدة الإلهية التي عمَّت أرجاء القرن الخامس ق . م ، وعقيدة التجسُّد الإلهي التي عمَّت أرجاء القرن الثاني ق . م والتي كان لها أثرها في الدين البوذي فهي التي بتأثيرها تحوَّل « سدارتها » إلى الصورة التي رأيناه فيها في الـ « مهايانا » ، أو المذهب الأكبر ، كابن عذراء وإله على الأرض لخلاص البشرية قد تجسد فصار بشرًا .. وهي التي عمَّت زمن ذلك الزمن ومن القرن الأول ق . م امتد أثرها وتأثيرها إلى القرن الأول ب . م لا بكريشنا فحسب ولا فحسب بسدارتها وإنمًا ... إنما بآخر عليه أُضْفَت أيضًا هذه الصفة ولحقت باسمه من العقائد هذه العقيدة ... فطلوع كريشنا على صفحات الـ « مهابهارتا » من سجلات الأدب الهندي القديم، يطلع علينا من تلك السجلاّت الأخرى لهذا الأدب القديم التي تعرف بالـ « رامايانا » الذي به تطالعنا ؛

كـريشنا، تغـيَّر في الأجـزاء الأخـيـرة من الـ « رمـايانا » « رامـا » ...
واستـحـواذ كريشنا على القلب الهندي استـحـوذ « راما » تحت الصـورة
التي اكتملت له في بدء القرن الأول ب . م كشـخـصـيـة ، لإقـامـة السـلام
العالميّ وخلاص البشر ، فيها قد تجسَّد روحًا الإله !

ومنذ ذاك العهد حتى هذا العهد و « راما » صورة للتجسُّد الإلـهيّ
في بشر فقد ولد لنشر السـلام على الأرض .

هذه هي عـقـيدة التـجـسـد التي لـعبت أدوارهـا الخطيـرة في تاريخ
التفكير الدينيّ وعـصـفت بالقلب الجـمـاعيّ عـصـفًا واسـتـحـوذت على اللب
الجماعيّ استحواذًا فَقدَ ، تحت تأثيرها ، فيها التفكير !

أجل ... هذه هي عقيدة التجَسُّد التي تأخذنا من القرن الثاني ق.م
إلى القـرن الخـامـس ب . م ليـمـر بنا الـفكر على تلك الفـتـر الزمنيـة التي
يطالعنا فيها في خضـمّ التـاريخ الدينيّ النزاع الثلاثيّ على عرش السـمـاء
في مـزاحـمـة لبـراهمـا بـين فشنو وشـيـفـا ، هذا النـزاع الذي انتـهى بذلك
التوفيق الذي رفَّت به منذ ذاك العهد حتى هذا العهد ؛

عقيدة التثليث

إن الأيام قد سارت فسـارت بنا إلى عـهـد نرى فـيه بروز « شيـفـا »
قد برز « فـشنو » بعبـادة تنتشـر على صـفـحـات « البـهـاجـفـادجيتا » ، لنرى
أن المجـري الجـمـاعي الذي تدفَّق خـلال القـرون الأولى وله دافق نـحـو
«شيـفـا» ، يجري في غير تحـوُّل عن « شـيـفـا » ، متـجـهـا نـحـو فشنو هذا
الذي حرَّك له لاهوت ، الوجدان الجـمـاعي بصـوت يُرسْل التشـاؤم موجة
أعلنت أن الحياة شـقـاء فبرز ، كنتيجة حتمية لهذا النداء ، « المخلِّص » ،

واحد هو الإله ولكن كلٌّ يراه من جهة عن الأخرى مختلفة ، غافل عنها صفات منتشرة في وحدة مقدَّسة ووجدانية ذات أقانيم ثلاثة !

غضون القرن الأول ق . م طرق الفكر الإنساني على هذه السفوح هذه الوسيلة ولكفٍّ لفوضى الدينية والحدّ من أمر هذا النزاع الطائفي امتد ليطالعنا في التفكير الديني :

عقيدة التثليث أو الثالوث أو آله واحد في أقانيم ثلاثة

من مادة هذا التفكير الذي طَرَقَ به طريق التوفيق بين المذاهب الثلاثة المتطاحنة صاغ اللاهوت البراهمي فلسفة فأبطل النزاع خضّب التفكير الديني الهندي بلون جديد ، فقد برزت بهذا التوفيق عقيدة عن الألوهة تعكس منها الصورة الصفحات المتأخرة من الـ «بها جفاد جيتا» أو هذا « الكتاب المنزّل » للدين الهندوكيّ الجارية فيه الآي في تناقض عجيب الأخذ بالواحدة للأخذ بالأخرى يبطل في ضوء التفكير الصحيح ففيه كل المذاهب والمعتقدات مختلطة في خلط فيه عقائد الفادية والبراهمانية وفيه عقيدة الوحدة اليوبانيشادية وفيه عقيدة التجسُّد الإلهي في راما وكريشنا ، وفيه عقيدة ألوهة شيفا بعد فشنو ، وفيه عقيدة ألوهة براهما ، ففيه الثالوث عقيدة تبرز بها من جديد عبر صفحاته المتأخرة ألوهة مشخصة لها من الإنسان الشبه والصفات ..

إن الواحد ، كشيفا ، مازال على القمة في « غوري سانكرا » مستو في صمت تأمليّ ترقب عيونه الثلاث مواكب الأجيال والجانجز ، المتفجِّر من منبع « براهما جيري » في الهملايا، من رأسه قد تفجَّر وحتى بنارس جرى ماءً مقدَّسًا بسببه قدسَّت بنارس وأضحت أرضا مقدسة ..

وتَرَتّب على هذا أن تضاءل سلطانه من النفس الجَمَاعية تضاؤلا بدأ به من يده انفلات الزمام الشعبي هذا الذي بدوره بدأ يتحوّل تدريجيًا إلى ألوان الفكَر التي ألفها في عهود الفيدا .. ومن ثمَّ أسرعت اليد اللاهوتية ، التي لا ترتضي لقبضتها عن هذا العنق التراخي ، إلى ألوان هذه الفكَر وعليها بدأت تضع الشروح الدينية التي بها صُوِّرَت « الفيدا » الذهن الجماعي تصويرًا كهنوتيًا ... وبهذه الشروح ، شروح النصوص الفيدية ، يلج بنا الزمن ؛

العهد البراهمي الآخر

والتفكير الديني في اللاهوت البراهمي الآخر

إن هذا العهد يبدأ منذ القرن الثاني ب . م ويمثّل العهد الذي فيه تمامًا قد تلاشت من أفق التفكير الإلهي فكرة براهما المجرّد وبروزه شيئًا آخر ليس له من القديم إلا الاسم فبينما صوّرت اليد اللاّهوتية شيفًا وفشنو تحت ما قد رأينا من صور ، تحوّلت فشبّهت براهمًا برجل شيخ ومثّلته على شكل قارئٍ لآيات الكتاب المقدّس الفيدا، يقف مثلا للكاهن البراهمي ومثلا للتعبُّد البراهمي الدينيّ!.

التفكير ، التفكير الديني في الهند غضون القرون الأول لبعد الميلاد ... تفكير مُشوّش مضطّرب لحته ناحية من اللاهوت فكان من جرائه أن طلع من البيئة الدينية نفسها من ينادي بالعودة إلى دراسة «الفيدا» دراسة صحيحة...

وبالفلسفة الدينية الحاملة اسم الـ « ميمامسا » بدأ العقل الديني تناول الفيدا واستعراض صفحاتها فوجد نفسه عليها يُقْبل وبنفسه يُلْقي في أحضان الدين ، لا تطوي يده « الفيدا » إلاّ ليعلن :

الصوفية ... هبّاتٌ تؤكّد الوهم الكوني وحقيقة النفس ! . صوفية ، تحفر على الزمن اسمها ؛

اليوجية الحديثة

إن اليوجية القديمة تُبْعَث الآن في القرن الرابع ب . م ، وتَتَطَوّر وبـ « باتنجالي » ، تنتظم منهجًا به ، في صورتها الحديثة ، تدلي في مشكلة النفس لها رأى به تطالعنا أعقد المشكلات الدينية :

مشكلة النفس في اليوجَية الحديثة

إن اليوجيّة ، نفسها ، هي ذلك الطريق الذي عبّده اليوبانيشاديوّن الأول لربط النفس « بالنفس » ، وقديمًا عَبْره حتى المنتهى سار «سدارتها» ومازال الطريق حتى اليوم للمُريد طريقًا ... ولكنه في اليوجية الحديثة قد غدا طريقًا إليه لا تشير اليوجيّة وإنّما بيد المُريد هَادية تأخذ فتأخذ به إلى حيث يراها فلسفة غفل عنها تاريخ الفلسفات ! ... مطمورة بين آثار الماضي في حاضرٍ جديد فيه أن تُبْعَث وتنتشر لا كما تعيش في صُوَرَ الزهادة على هذه السفوح أثرا على هامش الماضي وإنمّا كما بباتنجالي قد تطّورت فلسفةً ، نفسها ، من المنبع اليوبانيشادي أرسلها صافية ماءً رويًا يغترفه من يشاء !

جاءت اليوجية الحديثة وَمِن اليوبانيشادات لَهاَ الطابع التفكيري ومن التعقّل السانخيّ تتخّذ الأسس ، فجمعت الاتجاهين المُتنَافرين والرأيان المتضاربين في مجرى واحد لا تنافر فيه !

كلا ! ... إن اليوجية الحديثة فلسفة لا تتلاقى فيها أضداد بجمعها بين سانخية تقول بنفوس صغرى وتنفي « النفس الكبرى » ويوبانيشادية

المعرفة وبلوغ الكمال ومن ثمَّ صبغت اليوجية الحديثة صبغة الصوفية الطبيعية ...

مِنْ الأقسام الأربعة « لليوجا سوترا » لباتنجالي ، أقدم نصوص اليوجية الحديثة ، تطالعنا اليوجية الحديثة فنرى :

أن الوجود لمَّا كان سرمديًا و« براكرتي » أو المادة إنمَّا مظهره الظاهري وأن « بوروشا » أو النفس هي الجزء الإلهي من النفس الكونية فإن النفس ، **بطبيعتها ، طاهرة وسرمدية** ولكن ولوجها هذا الجسد الماديّ وولوجها به هذه الظاهرة المادّية هو سبب تأثرها بالوهم فإن جهل النفس بطبيعتها الإلهية هو المنتج للرغبة والأنانية وأصل الألم هذا العالم السرابيّ الطبيعة !

هذا هو الرأي الذي تنحصر بسببه الغاية اليوجية في فَصْل «يودوشا» عن « براكرتي » أو : **فصل النفس عن المادة** ! .

لفِصْل النفس عن المادة ، أو الوهم ، طريقٌ منهجه المعرفة بطبيعة الاثنين والتحرُّر من قبضة المادة ولما كان أعلى مظاهر المادة هو « شيتا » أو الوعي فإن على المرء أن يُحرِّر نفسه من قبضة « الوعي » ...

إن « شيتا » أو الوعي ، وهذا يشمل الشعور والعقل ، أول نتاج للمادّة وهذا لم يصبح وعيًا إلا عن طريق انعكاس النفس في هذا الجسد ومن ثم ينحصر الهدف في إرجاع الوعي إلى حالته الأصلية عن طريق : ضبط « راجاس » أو الحالة العاملة للعقل هذه التي تطلبْ القوة واللذّة الحيوية ، وإخضاع « تاماس » أو الغريزة وهذه دافعها الإيذاء ... وبضبط « راجاس » وإخضاع « تاماس » تتم للمرء السيطرة على «الشخصية»...

« أخمِسا » أواللا إيذاء ! ..

إن التيار العقليّ يسير متدفقًا في مجريين مختلفين نحو : الخير والشرّ حين يتجِه نحو التحرُّر والمعرفة يكون متدفقًا نحو : الخير وحين يتجّه نحو دوّامة الوجود ويحمل هديرها في ثناياه يكون تدفقه نحو : الشرّ من ثمّ فإذا اتخذّنا « أحمسا » أساسًا تغلّبنا على نوازع الشرّ بل لتطوّرت بنا « أحَمِسًا » من شعور اللاّ إيذاء إلى : « فايراتياجا » أو اللابغضاء !

متى صفا من البغضاء منا القلب بذر بذور الصداقة في صدر الكل وانعطفت منه العاطفة إلى التعاطف والرحمة وأضاءت سويداءه السعادة وعرف : « شيتا براسادانام » أو الصفاء الذهني !

لقد تحرَّر المرءُ من الحسد والغيرة و البغضاء وأضحى كله حبًا!... احتضن الكل فغدا لا يكره من له يكره ! .

غدا حبًا خالصًا فغدا لا يعرف البغضاء لأحد ! . فبينما هو يكره الشرّ لا يكره الشرير وبينما يزدري الخطيئة لا يزدري المُخطئ والخاطئ ! لقد عرف أن الخاطئ جاهل وأن الشرير واهم وعرف أن عليه أن يأخذ بيده ويقيله من عثرته وكبوته .. غدا مبدأه حبًا خالصًا فشفّت نفسه وأعلنت مبدؤه: اللاّقتل !

اللاّقتل لأى صورة من صُوَر الكائنات هو المبدأ اليوجي الأساسي، فاليوجية الحديثة تمتد عاطفتها وتسمو حتى الدرجة التي تحرِّم فيها القتل ... لا شيءَ يُبرِّر القتل حتى ولا الدفاع عن النفس يُبرِّر القتل ! ...

هاتان هما المرحلتان اللتّان متى تمّ لنا فيهما استعمال هذه المبادئ وتمّ لنا ، إلى جانب التطهُّر الخارجي من عفّة الجسد واللسان ، التطهُّر

المرحلة السادسة «دْهِييأنا» أو انحصار الفكر في «**الموضوع**» !

لنا القدرة الآن على حصر الفكر في « الموضوع » فالتيار العقلي قد هدأ وموج الغريزة المشوِّش الفكر قد تراجع جذرًا . لقد استطعنا الآن حصر فكرنا في «الموضوع» لنجد أنفسنا قد بلغنا ؛

المرحلة السابعة « **دهارنا** » أو تثبيت النشاط العقلي ! تمتَّ لنا الآن القوة على تثبيت النشاط العقلي المنحصر في « الموضوع » ... لقد صمدنا ولم نزل فبلغنا هذه المرحلة وهكذا نجد أنفسنا قد بلغنا ؛

المرحلة الثامنة « صَمَادْ هي » أو الانجذاب العقلي !

هذه هي المرحلة القاطعة أو المرحلة التصوُّفية بمعنى الكلمة ففي «صماد هي » قد تلاشى الإحساس بالشخصية ! .. تعطلَّت الحواس من الإحساس بالعالم الخارجي وليس هناك إلاّ « **موضوع التامل** » ! . شع منَّا الجوهر فأصبحنا في حالة « ساميامًا » أو النفس الخالصة .. **أصبحنا نفسًا خالصة** فقد شعَّ فينا ... القَبسَ ! إننا في « صماد هي » !

بين النفس والعالم الخارجي تقطَّعت في « صماد هي » أواصر الصلة .. استطاعت النفس تمزيق حُجُب الفَصْل بينها ومنبعها الحقيقي فتكشَّفت لنفسها ، بنفسها ، عن نفسها وانطلقت طاقتها الكامنة ! ولجَّت لجَّة حياتها السرمدية ! .

ولكن ! . هذه المرحلة ، المرحلة التصوفية القاطعة ، تنقسم إلى درجتين :

الدرجة الأولى « **سامبراجناتا** » أو « صمادْ هي » مُميزًا ، أو ملامسة « الموضوع » .

في هذه الدرجة نرى أن الوجدان الفاعل ، يُفْرغ نفسه من نفسه

السرمدية للنفس التي صمدت حتى تحررت تمامًا من أصفاد ووهم المادة وأضاءت نفسًا خالصًا ! ..

حالةٌ .. ليست هي بغيبوبة وإنما هي حالة تشبه التيقُّظ أو الاستيقاظ التَّام من النوم .. يقظة ، تضحى فيها رغبات الشخصية ورغائب الجسد ذكريات وهم وحلم تخلله كابوس ثقيل ! ..

الحالة ، هي الحياة الحقيقية فإن كل الحياة العقلية قد أُفرغت الآن بواسطة التقشف العقلي في المحبة المُفْرَغة في « الكل » ؟

هذا هو الإدراك التجريبي ، الفائق الوصف ، للوجود المطلق ! .. عن هذا الإدراك الفائق الوصف لا يستطيع اليوجي التعبير إلاّ بأنه حالة ليست هي عُزلة خالية يأوي إليها كائ محصور في حدودها بل هي عزلة يملؤها « الكُل » ! .. يملأها الأتمان ، الكلي ، الوجود اللاّ متغير ، الحقيقي ، الوحيد الغير المولود والغير الفان ! ..

هكذا نرى أن من المنهج الأخلاقي تطوّرت اليوجيّة الحديثة إلى فلسفةٍ التفكيرُ فيها يسير على هدى التعقُّل ،والمنطق فيها يُطالب بالبراهين، والبراهين فيها منتزعة من صميم التجارب ... وعلى هذه التجارب المشاهدة تَسْتَنِد إذ تدلي في مشكلة النفس لها رأى ... فهي ، أولا ، فلسفة بلغ التفكير فيها الدرجة التي أدرك أن العقل لا يستطيع إلى رحاب الألوهة بلوغًا، لتقيّده بالزمان والمكان ، ولكن ! . لئن كان العقل عَنْ الانطلاق محرومًا ولقيْد الزمان والمكان رهينًا فإن هناك شيئًا أعلى من **العقل شيئًا يدرك عجز العقل ! ...**

البرهان ؟ .. البرهان تأتي به اليوجيّة وللمطالب بالبرهان تقود بيده تأخذ وعَبْر هذا الطريق تسير وبه تتخطّى ، غضون اثنى عشر عامًا من

في « صَمَادْ هِي » لك اللا زمن واللامكان عـــالم أمّا المكان وأمّا الزمان فأمامك بقعة واحدة منتشرة وفي أية ناحية منها شاء لك المسير سرت – هذا سرّ اختفائك ، يوجيًا ، عن أعين وظهورك لأعين في أمكنة عدّة وفي نفس الزمن والآن !

وبـ « صمَادْ هِي » ، وقد ذاب للمادة نسيج نَسَجه للنور ، الذي أنت منه وفيه ، محض ظلال يتشكّل فيكوّن الأشياء ، قادر أنت على تشكيل جميع العناصر كما تريد وعلى تسخير المادة وتحويلها من شكل إلى شكل وبعد شكل شكلاً ، بل وعلى التشكُّل بأية صورة شئت – هذا سرّ لا تأثركَ بنار ولا ماء ولا صُلْب ، وخروجك من جسدك وحلولك في جسد آخر ، وسرّ مقدرتك على الارتفاع في الهواء !

أجل ... بـ « صماد هي » ستبلغ درجةً متى وصلت إليها فقد حصلت لا على درجة الغيبوبة الواعية وإنما على درجة الوعي التام الذي يعي الحقيقة فيعلم ماهية ما حوله وماهيته ! .. ستعلم لك ماهية وستعلم **أنك حقيقة الحقيقة** فتعلم أن « السانخيّة » كانت على صواب في شيء حين قالت بوجود نفوس تنمو في الكون وتُشارِك في عمله ، فنحن . نحن هذه النفوس !

نحن مَن سننمو ومَن سيتفتّح منا الوعي حتى يصير كلٌّ منّا روحًا قادرًا على تسخير المادّة وتكوين الأشياء ، فنحن في حقيقتنا ، لأننا نفوسٌ صادرة من النفس الكبرى ، أرباب !

نحن هذه « الأرباب » على أسس وجود إله ، نفسه ، نفس ! .

أجل ... ما هذه النفوس ، نفوسنا ، بموجودة إلاّ لأن كل نفس من «نفسه» نفسًا ! ... نفس « هو » عن كل نفس مختلفة ولك نفس مغايرة

بالشـارح الأول « بدريانا » مَنْ اتّسع للدين القـديم والفلسـفـة مـعًا منه الصـدر فـانحنى يحـاول لهـمـا بالتـوفيق توحـيدًا ، لا يحُول دونه والـهدف تبيُّنه تباين الاتجاهات بينهما فإن يده التي تناولت « الفيدا » ورأت فيـها تناقض النصـوص إثمًا في شـرايينها يجـري دَفـاّقا تقـوى الإيمان بإيمان الآباء .. بمقدّس كتاب ، إليها نحذّر من الآباء ضنينة ، ضنّت ذلك الضنّ الذي ولّد عقيدة أن « الفيدا » كتاب لم يُفْهَم صـحيح الفـهم ومن ثمّ يجب لآيه ، وبالتأويل ، إفصاح وإكمال ليطالعنا :

التفكير الديني في الفيدانتا « أو إكمال » الفيدا »

على هدى تعقُلاته سار العـقل الإنسـاني يُخـضّب تفكير الحـداثة بفكر النضـوج ، فـجـاء بمدرسـة تُمَثّل المصبّ الذي انصـبّت فـيـه الفكِر الهنديّة قاطبة ... اتخذَت الفيدانتا الفكِر الناضجة أساسًا فاتخذت النفس اليوبانيشـادية أسـاسًا لفلسـفـتـها ومـحـورًا لتـفكيرها الإلهي ومـعـتقـدها الديني !

ومن حول هذا المحور، براهما اليوبانيشادات ، نتدرّج بهذا المذهب والأيام به تسير وفي حقبة الزمن تجري الحقب عن قلب للهند قد تقاسمه في شمـاله وجنوبه فشنو وشـيـفا ، وعمـران الجنوب عمـر الشـمـال بأدب باسـميـهمـا شـعـرًا وأناشـيـد يتغنيّ لنرى أن العـقل ، الذي تناول « الفيدا » وعلى الأصل جرت يده تُعلّق فتسـتخـرج لمتشـابه الآي تفسـيرًا والمتناقضـة تأويلا بل وتحـتـال علـى إبراز متـناقضـه تحت ثوب قشـيب من التـسلسل المنطقي والإعجاز البياني ، قد تحوّل نفسه عن تصديق نفسه فقد وجد أن بحوثه قد تحـولت به إلى الناحية اليوبانيشـاديّة تحـوُّلا به تلاشى من أفقه

« مايا » أو وَهْم ! إن عن طريق انجذابنا في أنفسنا وتمركزنًا في النفس منًا نعلم أن جميع الأشياء ليست إلاّ ؛ « مايا » !

وهمٌ كل شيء إلاّ شيئًا واحدًا هو، نفسي هو « أتماني » فأتماني لا يمكن قطُّ أن يكون وهمًا لأن الذي ينكره ففي نفس الآن يسلم بحقيقته !

إن هذا العالم الخارجي ، الوجود الظاهر المتنوع ، ليس له حقيقة وجود وإنمًا الحقيقة مقتصرة على هذه النفس التي تدرك أن الذي تراه ليس إلا وهمًا إدراكها لذاتها أنها هي ، في خُضم هذا الوهم ، الحقيقة !

أَوَشَكّ أن ليست هناك حقيقة إلا النفس التي تبحث عن نفسها والتي ينتهي بها المطاف إلى أن تدري أن ليس هناك وجود إلا لـ «براهمان - أتمان » ؟ .

جرِّب ! انطو في معزل عميق من نفسك لنفسك ناشرًا وإلى هذه التجربة ليس غير اليوجيّة طريق لا تيأسًن فعنك ستنحسر سنوات وأنت في تيه هذا الطريق ولكنك ستبلغ النهاية ! .. والنهاية هي وصولك إلى درجة الاطمئنان التام متى بلغت هذه الدرجة وجدت أنك لا تجد إلاً ... إلاً أنت و « هو » « هو » في أنت وأنت في « هو » !

مُسائلي : ما أنت وما « هو »

إليك الجواب : إنك لو بلغت هذه الدرجة لكففت عن السؤال !

على هذه الأسس لليوجية الحديثة ردًدت الشفاه الشانكرية نفس النغم البوذي وهبًت تنادي إليها الإنسان :

يا أيها الإنسان ! إن شخصك الخارجي المُشَابه لسواه والمختلف عن سواه في أشياء وأشياء هذا الذي يولد ويعيش ويموت ، **ليس بأنت** ! ما أنت ، أيتها النفس ، إلا قبس من النفس العالمية ، « براهمان أتمان » ، والقبس من النور **نفس النور** !

أيّ صور من صُوَر العبادة تُقدِّم من ثمَّ لتصل الإنسان بالإله؟

لهذا السبب استعرض شانكرا تاريخ التفكير الديني الهندي فوَجَد... وجد فكَر الحداثة والشباب ووجد رزين تفكير النضوج - فكراً إذا أُخذت ككلّ تَبَيَّن فيها التناقض وإنما إذا حُددّت فإنها تمثِّل ناحيتين تستجيبا لما قد أنشأ في الفيدانتا من مذهبين فلسفيين تحولت بهما الفيدانتا إلى فلسفة :

« نَرْجنا فدْيا » أو المذهب الداخلي .

و « ساجنا فدْيا » أو المذهب الخارجيّ .

بالإله لا تصل الإنسان عبادة من لهم المذهب الخارجي مذهبًا فإن فكرة الألوهة المُشخَّصة التي يؤمن بها العقل الجماعي فكرة خاطئة لأن الشخصية معناها التحديد وهذه الصفة لا تناسب من هو فوق كل وصف ومن به لا تصل قرابين تُرفع وبيوت بها يُطوَّف وإنما عبادة « المجرَّد » ، عبادة من لهم المبدأ الداخلي مذهب ، **عبادة مجرَّدة** بالإله تصل الإنسان عبادة فكرية خالصة تحت ألوان التأمل والتدّبر والتذكُّر من صُور التفكُّر.

هذه هي العبادة الصحيحة التي تدلنا عليها « أنوبهافا » أو الحَدْسُ !

إن « أنوبهافا» أو البصيرة أو الحَدْسُ موجود في الكلّ ولكن الجلُّ عنه غافل بوهم «مايا» أو السراب ! . من ثمَّ على المرء أن يكف موج السراب عن « أنوبهافا » وحين يكف المرء موج السراب تسطع «أنوبهافا» وتضيء أرجاء النفس بسعادة فائقة لا توصف يدرك بها المرء أنه قد كف عن أن يكون إلاّ وعيًا خالصًا .. فإن «أنوبهافا» ليست الوعي بشيء دون شيء وإنما الوعي الكامل بالكل !

كلا ! .. كلا – لا تقل أمامها ، كلا ولا تقل فيها.. وإنما قل تبرز الحقيقة السرمدية التي كانت محجوبة بحلم طويل ووهم الزمان والمكان فلا شيء هناك خَلاَ ؛

« براهمان »

إلى الشانكرية في هذه النقطة يجب التنبُّه بملاحظتها أن «الموت» لا تعقبه رقدة أو فناء وإنما يقظة فوعي ومن ثمَّ فإدراك أقدر وأقوى ، وحينذاك سيغيض موج السراب وتظهر الحقيقة السرمدية التي كانت محتجبة بحلم هذه الحياة !

أجل .. لقد مررنا من قبل بشانكرا مؤكدًا أن لا حقيقة أنّ لا النفس وإليه أصغينا مدليًا الأدلَّة على قوله بأن :

كل العالم وهم إلاَّ « أتماني» فقطُّ لا يمكن أن يكون « أتماني» وهمًا لأنه هو الذي يعرف الوهم – وبهذا القول جاء في « مشكلة النفس » بالمبدأ الداخلي القائل بأن جميع الأشياء وهمية عدا شيئًا واحدًا... «أتمانى» أو نفسي فنفسي قط لا يمكن أن تكون وهمية لأن الذي ينكرها ففي نفس الآن يسلم بحقيقتها ... بيد أن هنا يسائل الفكر شانكرا ما هو الفرق بين « جيو أتمان » أو النفس الفردية و «بريم أتمان» أو النفس الإلهية أو براهما؟!

تجيب الشانكرية مُقررة أن : منْ النفس الإلهية قط لا يمكن أن تكون النفس الفردية جزءًا ، لأن المُجرَّد عن الزمان والمكان لا يمكن أن يتجزأ ، لأن الأجزاء إمًّا تَعَاقُب في الزمان أو ترتيب في المكان ومن ثَم لا يمكن أن تكون النفس الفردية مختلفة عن «النفس الإلهية» لأن **اللاَّمتجزأ**

تظهـر إلاّ فـقط عند النهـاية ، لحظة يشعّ الوعي وللوعي يعي ، واعـيًا أن الحقيقة ليست إلاّ : **وعي** !

بيد أن أمـام التـعريف الشـانكري تُراود الفِكْر من الأسـئلة سـؤال : ما سبب كمون الطبع الإلهي في « أنا » ؟

من المذهب الداخلي إلى الخارجي تنتقل بنا الشـانكرية ونجيب : إن السـبب هو ؛ «أوبـاد هـي» أو الصـفات وهـذه ؛ في «ماناس» أو العقل و «برانا » أو المبـدأ الحي و « شكشـمـام سـرير أم » أو الجسم مـع فـروع الحـواس الخمس... جميع النظام النفسي الممكن التغُّير من صـورة إلَى صـورة مع « الكارمـا » يرافق الأتمان في جـمـيع طرق صـيرورته بدون التأثير في طبعه الإلهي .. كالبلّور !

البلُّور لا يتـأثر بما قـد لُوِّنَ به من لون ! بَيْد أن للفكر أيضـًا تراود من الأسـئلة سـؤال : إذن مـا أصل مـا يتصـًف به البشـر من الصـفات ؟ .. وأيضـا من المبدأ الخارجي يأتي من الشـانكرية الجواب :

إن الصفات البشرية ليست في الحقيقة إلاّ ، تَشكُّل جزء من «مايا» أو العـالم السـرابي، وهذه تتـأسس على « أوديا » أو الشـخصـية الغـريزية وهذه مـصـدر الجـهل فـهي تلك القـوة السـلبـية والمحض السـلبية التي فـيهـا قدرٌ من القدرة الكامنة لصد طبعنا الإلهي !

بيد أن إلى الدقيق من المشاكل يدلف بنا هـذا الجواب دلفه بنا إلى سـؤال :

فـمن أين تأتي هذه القـوة السـلبـيـة المطوي فـيـهـا السـبب الأصـلي للجهل ، فالمعصية ، فالشرّ ؟ !

في هذه الحالة وحدها يصل الإنسان إلى هذه الدرجة ، درجة الإلهام البصيري ! وفي هذه الدرجة ينال الواحد الاتحاد بـ « الواحد»..

في أرجاء دنياها انطلقت الشانكرية مرشدة إلى هذا الطريق تتنادى بأن :

المعرفة لا تهبط من السماء وإنما إليها يصعد الإنسان عن طريق التعمق النفساني والطهر الروحي بالزهد والرياضة وخلوص النفس إلى نفسها من شواغل الجسد وسراب الوجود !

إن الإنسان هو الذي يرتفع بنفسه إلى هذه الدرجة عن طريق التعمُّق النفسي ، ووسيلته الرياضة والخلوص من شواغل الجسد والمادة، فينالها تحت اسم الإلهام الحدسي أو البصيري وهذا هو ببراهما الاتحاد .. الاتحاد الذي تعلنه الشانكرية لا يتُّم إلا لمن لديه تحققت المعرفة الكاملة وفيه توافرت هذه الشروط التي كان شانكرا أول من طبقها بنفسه على نفسه حين خلع على نفسه « الرداء الأصفر «وفي يده تناول» الوعاء البوذي » ينادى الإنسان :

« يا أيها الإنسان إن شخصك الخارجي المشابه لغيره ، هذا الذي ويولد يموت ليس بالحقيقة فإنما الذي يجب إن ينظر إليه هو الحقيقة الإلهية فيك ، فإنما أنت نفس إلهية أنت الإنسان والإله أنت المشخَّص واللاَّ مشخص أنت الواحد الأحد فأنت « الأتما » من «الأتمان» و «الأتما» من «الأتمان» هي نفس «الأتمان» ! لقوِّى النغم اليوبانيشادي الأوَّل رجَّعت الشانكرية أنغامًا ولكن ! . هبَّ فَزِعًا الدين !

أجل ... إن « بالمجرَّد » عاد شانكرا فجرَّد من الحقيقة التجسُّد

من معاقل الكهنوت انطلق « رامانوجية» على الشانكرية ثائراً يحاول لها دحضاً فجاء ، في القرن الحادي عشر للميلاد ، معلّقا على الكتاب المنزلّ « بها جفاد جيتا » ولما قد استخرج من نصوص أتى مؤيداً للتجسّد وللثالوث ، فأيّد فشنو وأيد كريشنا وبتأييده فشنو أيدّ شيفا وأيدّ براهما ولكن ! براهما المُشَخّص !

وبرامانوجا أُيدّت نظرة الدين .. وبما جاء به من ثنائية الفصل والقول بالاتصال بدل الحلول ، حلّ الاتصال الرامانوجي محل الاتحاد الشانكري .. وبتعليمه أن الناس سينالون الخلاص عن طريق حفظ النصوص والتأمل في صافي الخضم الإلهي ، عادت قوائم دين سندّت الرامانوجيّة منه متصدع الأركان ، وبإخفائها العيوب تحت طلاء عاطفي براق هوت إليه العاطفة الجيّاشة ، وبُعِثَتْ « البها كتية » أو ذلك التحمُّس الديني الدالة عليه هذه الكلمة التي نصادفها في «السفيتا سفاتارايوبانيشاد» ، وعلينا بها تُطوف « البها جفاد جيتا» ، فنعلم أنها صوفية دينية امتدّت من غضون القرن الثاني ق . م لتزدهر حتى العهد الحاضر .

كلا ... « البهاكتية » ليست كاليوجيّة ، المعرفة فيها ليست هدفًا إليه تُركّز القوى الروحيّة لهدم القوى الجسدّية وإنما «البهاكتية» تمثّل المجرى الطبيعي للتفكير الديني المقيّد بقيد العادة والتقليد وأن تلك ، عاطفيًا ، تنتمي إلى منطقة الوجد والوجدان فهي الحُب الديني العارض ، بهذا الحُب ، عن أعراض للدنيا طبيعتها طبيعة فانية فيها الملاذ وهمية ..

بها التفكير إلى إقامة وحدة دينية تضم ، في شمول كل ، عناصر الإيمان الصحيح المنتشرة على سفوح الإمبراطورية المغولية تكوِّن بذاتها ديانة تمثِّل النواة لشجرة تحتها يلتقي في تسامح كل أصحاب الديانات ...

بيدأن طوت راحة الأيام « أكبر » سيِّد هذه الإمبراطورية ، سليل تيمورلنك وجنجزخان ، عن الأمنية – ولكن الفكرة لم تطو فقد أعقبت هذه الأمنية للتوحيد الديني أمنيات ، مثلّت الواحدة « الأحمدية » بمحاولتها التوحيد بين المسيحية والإسلام عن طريق تجريد الدينين من المعتقدات التي بسببها ينفصلان ... ومثلّت الأخرى . تلك التي جاءت تُحاول التوحيد بين الهندوكية والإسلام فمزجت بين الدينين مزجًا ضمَّ إلى تاريخ الأديان :

الدين السينجي

في غضون القرن الخامس عشر نرى الصوفية الإسلامية يُمثِّلها على هذه السفوح «كبير» ... ولنراه ينطلق ، بعد تلمذة على المعلم الهندوكي «راماناند» ، يقف بين الهندوكيّة والإسلام للإله يناجي :

«أيها الإله، سواء أكنت اللّه أم راما ، فإنّى بك أحيا وبك أعترف !»

ولكن ... ! « كبير بانث «أو مذهب كبير، قد استغِلّ استغلالا سياسيًا ونفعيًا بالهندوكي « مانانك » الذي انتهي به الأمر إلى التوحيد بين الهندوكية والإسلام وتأسيس هذه الديانة التي نعرفها باسم «السيخية» أو بالأحرى هذا الدين الذي يقف ، بما يضُم من متنافر ألوان دينين ، يكوِّن دينًا مستقّلاً غريبًا عن الهندوكيّة غرابته عن الإسلام .

دين ، مسنده هو ما قد جمع « أرجون » ممّا قد ألقاه « ناناك » من

أقامت من بيوت مقدسة وحرام ... أمكنة ، إليها يحج الحجيج وبها يطوف وحتمًا على من في نطاق كل دين قد ولد بقدسية هذه الأمكنة الأيمان ! ...

أجل ... للهندوكية « بنارس » أرض مقدّسة وكعبة إليها الحجيج يسير الحول بعد الحول من كل عام .. وللبوذيّة « بوذاجايا » أرض مقدّسة وكعبة إليها الحجيج يسير الحول بعد الحول من كل عام .. وللسيخية « عمر يستار » أو البيت الذهبي كعبة بها يطوف الحجيج وبها يتمسح ... كما للإسلام « مكة » أرض مقدسةّ وكعبة إليها الحجيج يسير الحول بعد الحول من كل عام!

ولكن ! .. عن هذا النطاق يتجهّ إلى الخروج التفكير الهنديّ للفكر الإنساني اليوم ... وبتفكيره يتحوّل الفكر الإنساني عن هذه الأديان التي تقوم صروحها على الإيمان بالوهة حسيّةٍ وكتب مقدسة ، هي ، من « الفيدا » إلى « الجيتا » ، بما حوت من معتقدات وعقائد ليست في حقيقتها إلاّ فِكَر مراحل حياة الفكر التطوّرية لآراء جاء بها حدثًا ويافعًا ولها ترك ناضجًا فتركها للجماعات دينًا !

عن فِكَر الحداثة والصبا يشيح العقلُ ، ناضجًا ، في تحرُّر من التعقُّلات الدينية وشروحها إلى تفكير حر أفقه أفق جديد قد اتسع بحديث العلم وحديث الفلسفات .. أفق ، أفقه آفاق كل ما في أرجائها من نسائم فمحض يوبانيشاديّ .. نسائم تحمل المدّ اليوبانيشادي ليمتد فوّاح الأرج غامرًا الأرجاء الفكرية في هند الحاضر !

أجل .. إن الموجة الروحية التي أرسلتها الهند في تاريخها باليوبانيشادات يمتدّ تيّارها الروحي من جديد جديدًا مُجترفًا النفس إلى

الديـــن في الصيـــن

الدين في هذه الأودية ، المبهمة الآفاق المنْحَسِر عنها التاريخ عامرة بشعب تؤلفه عناصر مزجتها للزمن يد استهلت بها في صفحة التاريخ للصين حضارة وضعت من صرحها الأسس فيما قبل الألف الرابع ق.م، تاريخ يستهلّ تاريخه باستهلال العصر السيني ، من حوالي ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠ ق . م ، هذا العصر الوليد لحضارتين مختلفتين والذي على صفحتيهما ترك العقل الإنساني خطواته المتنافرة قبل أن تمزج الأيام هاتين الحضارتين مزجًا يستهل به تاريخ الدين سجلّه ، من قبيل ٢٠٠٠ إلى ١١٢٥ ق . م ، بالحضارة الشرقية التي تحمل اسم « شانج» ، ليطالعنا :

الدين في الحضارة الشرقية

على صفحة هذه الحضارة نتقصّى خُطوات العقل الإنساني مرحلة مرحلة بيد أن كما نبدأ نطوي من عهود هذه المراحل طيّات تبرز ، تحت أضواء المعاول الأثرية ، آثار تَصِل بين هذه الأودية ووادي الفرات فلقد ألقى إلينا الشمال الشرقي والغربي لهذه الأودية أواني ، يعود تاريخها إلى فجر الألف الثاني ق . م ، مجانسة لما قد ألقاه وادي الفرات إلينا من

نفسه كان فيه قد تمثّل العقل الإنساني لتطالعنا به النظرات الأولية للعقل الإنساني ، في هذه الأودية ، نحو مشكلة الدين غداة على قاعدة تفكيره الإلهي ونظراته إلى الوجود قام صرح الدين ...

على ضفاف « النهر الأصفر » استهل العقل الإنساني أولى خطواته نحو الدين ومستهلاً الخطي ، وليدًا فحدثًا ، سجلّت خطواته رضوخه لسنّة التطور ... عَبْر المراحل الأوّل كبا ووليدًا تعثّر .. وحدثًا ، أمام طبيعة تعددت منها المظاهر والظواهر، راح يُفسِّر أن لكل ظاهرة روحاً بإدارتها مكلّف فجاء !

بالـ « شين » أو أرواح القوى الطبيعية .. وبالـ « كوى » أو أرواح السلف ...

بيد أن كلاً فأرواح بعيدة كل البعد عن صفة الألوهية . بهاتين العقيدتين بدأ الدين في عصور ما قبل التاريخ ليتجلّى في العهود التاريخية كشريعة تنحصر وتتلخّص في استجلاب رضا أو دَفْع ضَرَر هذه « القوَى الطبيعية والقوِى البشرية » التي كان محاولته استطلاع ما تضمره ضمائرها سببًا في دراسته « السماء » ، ومحاولته تسخيرها لمطالبه سببًا في «السِحْر» .

ولكن ! هذه العقيدة ، عقيدة « كوى شين » ، القائلة بأرواح يمور بها الكون بين بشرية وطبيعية ومحاولة العقل تفهُّم نواياها من الظواهر الطبيعية والأحداث الزمنية هي التي قد دفعت به في مدارج التطور قدمًا ، فلم يك إلاّ هذا الاهتمام في تفهّم نيّاتها سببًا في دراسته صفحة الفضاء والتوسُّع في هذه الدراسة ، بل ضاعف منه هذا التوسُّع في هذه الدراسة حياته الزراعية التي أدّت به ، وهو يرى أن الأرض لا تحوي غير العناصر

من هذه الثنائية الناشئة عن « الوحدة » وُجد هذا الوجود الخارجي لينتهي كما بدأ ... ومن ثمَّ فليس الوجود إلا مظهرًا دوريًا مصدره من « طي » ونهايته في « طي » !

بِوَهج الألوهية توَّهج الفضاء فامتزجت الألوهية بالسماء وانطلق المنطق يتنادى بنداء ردَّدته أضفة هذه الأودية وآفاقها وراح في أرجائها دويًا يُدوّي :

أن فيما وراء « كوى .. شين » هناك القانون ... هناك « طي » .. و«طي» .. ؟ طي ، هو الأعظم المطوي . .

وللأعظم المطوي ، راح اللِّسان ينادي بالاسم الدَّال على هذا المعنى والذي بسببه طلع ، في سجّل التفكير الإلهي ، للألوهة من الأسماء الاسم الذي راحت تردده الشفاه في هذه الأدوية من ذاك الحين حتى الحين ..

« شانج طي » !

وإلى « شانج طي » تحوَّل العقل الإنساني عابدًا فجرت يد الزمن تُسطِّر في السجّل الديني :

«الدين الطاوي »

الدين الطاوي دين بدأ يتخَّذ صبغته الرسمية في العهد الذي انتظمت فيه السياسة الصين بنظام سياسي واسع بِيَد كاهن أكبر واحد للصين كلها ، نفسه كان الإمبراطور نفسه كان الناطق بلسان السماء . ومن ثمَّ فهو المُمَثِّل السماء على الأرض .. ومن ثمَّ فهو « ابن طي » ... وبهذه العقيدة يستهل الدين الطاوي تاريخه مُسجِّلا على نفسه :

« عقيدة ابن السماء » !

نفس الكبوة التي كباها العقل فتيًا في مصر لحظة قال بنفسه ،

« طي شان » !

وهكذا بدأ « الحج » منذ ذلك الفجر البعيد من تاريخ هذه الأودية !

قديمًا .. قديمًا ووفود الحجيج إلى بيت الإله في واديّ النيل والفرات تسير .. وقديمًا ويد الزمن بالقلم المسماريّ تحفر على الألواح الحجرية شريعة حمورابي وتطلع على الدين شريعة المِثْل بالمِثْل » ، شريعة أبَى مشرعها إلاّ القول العدل فقال بها مرفوعة إلى السماء ولم يقل بها إليه هابطة من السماء ! وقديمًا قبل أن تراق الدماء وتتصاعد على سفوح الهملايا ومعتليات الأوليمبس المُحْرقات ، وقبل أن تسطر التوراة والهوميريات ، بدأ الحجُّ في هذه الأودية وحُفرت الشريعة وعلى قائم الصخر في محراب الطبيعة أقيمت وسار الحجيج يعتلي ، إلى « شانج طي» ، « طي شان » .. . ومنذ ذاك الزمن حتى الزمن وإلى «شانج طي» على « طي شان ..» فريضة ، من كل عام !

الحج ! ..

إلى « طي شان » ،على الجبل المقدس ، عبر المدينة المقدسة «طيبان» أو « السلام الأعظم » ، قديمًا سار الحجيج ، ومازال يسير من كل عام في أيام معلومات (٢)، كما كان يسير منذ أربعة آلاف عام ! .. من عهد الأسرة الأولى أديت ، أداءها اليوم ، على قمة «طي شان» شعائر الحجِّ من صُوَر العبادة من ضحايا ومكرّر صِيَغْ في صورة صلوات ... صِيَغْ ، نرى البعض منها مازال منقوشًا على قائم الصخر ، كتعاليم ، على لوحات كان يقرؤها في مسيرة الحجيج قبل أن تضمّها ضمًا من بعد أسفار « الكتاب المقدّس » كنصوص مقدسة ...

أجل ... إلى « طي شان » من « طيبان » الواقعة في سفح الجبل

إن وجود القانون الأخلاقي في الداخل إنما على هذه الوحدة دليلٌ وبرهان فإن أيّ انحراف بسيط عن اتّباع مبادئ هذا الصراط السويّ الموجود « بالفطرة » في داخل كل نفس يحْدث اضطرابٌ تُرجِّع صداه جميع جزئيات الكون !

على هذه الأسس امتد العقل الإنساني يقول ؛ إن نفس هذا البرهان ، برهان وجود القانون الأخلاقي في الداخل ، إنّما برهان على وجود « طي » كوحدة وفي أن الآن نفسه برهان الارتباط بـ « طي » .. «طي» الذي نستطيع ، عن طريق قانونه هذا المنتشر في طيّات كلٍّ نفس وعلى صفحات كل قلب ، استخلاص صفة له لماهيته بها نتعرّف فنعرف ؛ أن «شانج - طي » هو :

الخير والخير ؟ .. الخير : العدالة والكمال ! على وجود الإله إنما القانون الأخلاقي في الداخل برهان ، بل إن وجود هذا القانون الأخلاقي في الداخل برهان في نفس الآن على أن الإنسان خيِّرٌ بفطرته... من ثمّ فإن الخير فطريّ في الناس والشر لا يقع إلا إذا حاد الإنسان عن طبيعته !

بهذا التحديد للخير والشر تجابهنا : مشكلة الخير والشر في الدين الطاوي.

مشكلة الخير والشر في الدين الطاوي مشكلة حلولها تنتشر في :

شريعة السماء ؛ « قانون طي » .. والقانون الأخلاقي في الداخل

« شريعة السماء » في هذه الأودية شريعة ليست كما في غير هذه الأودية من الشرائع فهي في سواها تختلف اختلافًا أساسيًا فإن شريعة السماء في هذه الأودية شريعة غير منزلّة!

إن الإنسـان كائن مُفكِّر حتمَّت العدالـة أن تكون له إرادة وأن يكون له اختيار وهذه الإرادة وهذا الاختيار قد يبعدانه ، إذا أساء استعمالهما، عن اتباع الخير الموجود في نفسه على هيئة استعداد فقط وكمون وقطّ ليس فيه بكامل التكوين ، وقد يُقرّ بأنه ، إذا أحسن استعمالهما ، إلى إنماء هذا الخير فيه حتى تصبح طبيعة له عملية :

الفضيلة

والفضيلة ؟ .. الفضيلة لا تتحقّق بعمل خيري ظاهري فإنما هي كمال الخلق وتحقيق الاستنارة التامة للنفس باتباع الطريق السويّ في كل أمر ... اتّباع الطريق المرسوم في داخل كل نفس ، هذا الطريق المرسوم الذي يأتي نفسه كبرهان ، مشاهد أثره في كل شيء ، على ذلك الارتباط المحكم بين السماء والأرض والإنسان ، فبسيط حيدة في الإنسان يحدث اضطراب في « قانون على » يتردّد صداه في جميع الكون ... إن أكثر هذا الاضطراب المشاهد في مرافق الحياة إنّما آت من حيدة الإنسان عن مستقيم « صراططاو » .. ومن ثمّ فواجب كل كائن أن يكون فاضلاً كي لا يكون مجلبة لشقاء يشْقَى بسببه المجتمع !

بهذه القاعدة خرج الدين ، دين طاو ، من حيّز النظريات المجرّدة إلى فلسفة أخلاقية عملية تنحصر في الرحمة والفضيلة وتتلّخص في كلمة؛ الواجب.

وبهذه القاعدة تحوّل جوهر الدين من الطقوس أو المظهر المادي للعبادة إلى المظهر المعنوي ؛

الواجب !

وعلى أسس « الواجب » ، كشريعة « لدين طي » ، أُقيمت الأخلاق

فهذا لفظ شعريّ قديم من معانيه معنى القبضة القابضة بقبضتها أمر الحياة ولكن الشكل الذي به أضحى يُكتب في هذه الفترة من التاريخ إنما يحمل من المعاني معنى كل الجدّة جديد ، فالشكل الجديد لا يعني السماء ككائن متحرك وأصل للحياة وإنما هذا الشكل الدّال على تصويره الإله «الرجل الذي في السماء» يرينا أن العقل الإنساني ، الذي كان قد ألّه هذه اللجّة اللاّ محدودة القِوى وزاده بالوهتها يقينًا تحركها حسب نظام دقيق فقال بها كينونة حيّة متحركة حسب هذا القانون الدقيق ، إنما قد استرسل من هذه القاعدة منطقه وقال :

إن هذه «الحركة» يُحركها مُحرِّك فيها يقوم القول قال العقلُ فقال ؛ إن في السماء كائن يحركها بالإرادة ! وبهذا القول فصَل العقلُ الألوهة عن السماء وأصبحت السماء مكانًا للإله الذي في السماء !

بفصل الألوهة عن السمـاء انفصل الإله إلى جسم وانفصلت السمـاء إلى مكان ! أضحت السماء مكانًا لألوهة أحاطتها المكانية فاكتنفتها التجسديّة ! وبينما أصبحت كلمة «شانج طي » رمزًا لقانون سرمديّ اقتصرت كلمة « تيّين » على الإشارة إلى ؛

« **الإله الذي في السماء** » !

وإلى « الإله الذي في السماء » ، « شانج طي » نفسه ، استمّر العقل الإنساني يرفع الضحايا ويُقدِّم القرابين المنقسمة إلى أربعة أنواع مقصور تقدمتها على « ابن السماء » في الاحتفالات الدينية التي تطالعنا عنها الصور بعبادات ترتفع « لطي » في بيوت أعظمها القائم في « بكنج » وفي العراء ومهابط الأودية وعاليًا في معتليات قمم « طي شأن » !

ولكن ! .. لئن أسبل العقلُ عابدًا وأدلع النار تقرُّبًا للإله الذي

تسير ... تسير لتسلم قبضة الحكم الطويل لأسرة « شوو » ، تدريجيًا ، إلى التهافت والتراخي والعجز السياسي الذي يطالعنا واضحًا حوالي القرن السادس ق .م القرن الذي انقسمت فيه الصين إلى ما يقرب من ستة آلاف مقاطعة ، كل واحدة منها تعيش في فوْضى حكم إقطاعي سجلته يد الزمن في سجل التاريخ الصيني باسم :

« عصر الفَوْضَى »

إلى المنازعات والفِتَن استسلمت في هذا العصر ، عصر الفوضى، هذه الأودية فأسلمتها المنازعات إلى المنازعات وجرفتها الفِتَن إلى الفِتَن فهوت البلاد إلى أعمق أنواع الفوضى والاضطراب وازحة تحت نير التدهور السياسي والاقتصادي ... لأجيال ، تحت نير هذا التدّهور رزحت البلاد فانتابتها المِحَن . !

ولكن !

المحن إذا اشتدّت شدّت أوتار النفس وأخلدتها إلى نفسها وإذا ما خلدت النفس إلى نفسها بدأت تستعرض تفاهة النضال في حين ينضج العقل نضوجًا يصقل فيه ويصفو ، وبقدر ما تكتنفه الحواجز نحو الأهداف تبعثه متوثبًا للإصلاح وتدفعه متسائلاً :

أي الوسائل للخلاص من هذه الفوضى الوسيلة ؟ !

سؤالٌ ، به خبا « عصر الفوضى » وبزغ :

« العصر المنهجيّ »

إن المِحَن قد قفزت بالعقل الإنساني إلى مرحلة النضوج فقد استشرت الفوضى واشتّدت المحن ليبارح العقل طور الشباب فيبارح مرحلة العقيدة والإيمان إلى مرحلة التعقُّل .. وللسبب تحرّكت يد الزمن

إلى : أنه إذا كان السبب في هذه الفوضى هو « الحيدة عن طريق طي »
فإن : الوسيلة إلى الخلاص إنما تتلخّص في العودة إلى « طريق طي » أو
بعبارة أوضح الرجوع إلى « قانون طي » ! ..

وفي « طي » فكّر « لآو تسو » ... فتبلّور « طي » وسطع في أفق
المخيلة اللاّوتسية شيء مجرّد .. مجرّد ، لا جسمية تحدّه ولامكانية تُقيِّده
ولا طقوس بها إليه يُتقرّب .. مجرّد ، لا يحده الزمان ولا يطويه المكان ..
مجرّد ، يملأ وجوده الوجود ومن ثم فالمجرّد شيء لا محدود .. ومن ثم
فهذا الشيء ، هو كل شيء ، وفي آن الآن ... :

لا شيء !

بهذا التعقُّل المنطقي تحولّت الفكرة عن « طي » كإله وعن « طاو »
كقانون ، من عقيدة دينية إلى فلسفة وعقيدة فلسفية ... عقيدة فلسفية لها
سجّل القلم اللاّوتسي في وادي « هان كو » على صفحات «طاو طي كنج»
أو الدستور الطاوي الأخلاقي مُسجِّلاً فلسفة تحولّت بالعقل إلى النفور
من الطقوس والتحرُّر الكامل من قيد القيود !

من قيد قيود باسم التقاليد قُدّت إلى فسحة التفكير الحر انطلق
العقل الإنساني في تمثّله بلاو تسو فأتى للصين بفلسفة لم تحدّ نظرها
السماء وإنما فيهاجالت فلم تجد فيها إلهًا !

في السماء لم تجد اللاّوتسية إلهًا له عنصرًا العنصر الجنسي ،
تصوره المخيلة الدينية ومن ورائها الجماعية ، كرجل ، بل لم تجد السماء
نفسها مكانًا فعادت تُعلّم :

فارغ ، على النحو الديني الذي يُصوّره للجماعة عقل ، الوجود من
إله . فإنْ :

أصـــبــــحت كلمـــة «طي» تُؤدي مـــعنى يقـــرب من « الأتمان اليوبانيشادي».. وأصبح من معانيها معنى « الفكر والنفس السرمدية المشتملة على جميع القوى الحيوية » أما صفتها فالإطلاق وأما كنهها فالكينونة النقية غَيْر القابلة لمدركية الإدراك !

عن مدركيَّة البشر سمت بـ « طي » اللأوتسية وعن طريق المعرفة البصيرية أو الحَدْسية انتشر لها الوجود ، كوحدة ، مِنْ وفي « طي » يمور ، فانطلقت تنادي :

ما مظاهر هذه الوحدة إلا في مخيِّلة « طي » صُوَر وما ظواهر هذه الوحدة إلاّ لـ « طي» أفكار !

في « طي » طوى العقل الوجود كـصُوَرٍ ، ومن « طي » نشـــره كأفكار ، فعاد بالوجود إلى الظلال وبأشيائه إلى محض سراب !

سرابٌ الوجود ومحض ظِلاَل !

ولكن ! الوجود ظلال لحقيقة واحدة هي : الحقيقة الوحيدة .. «طي» !

للعقل ، ناضجًا ، تبدَّى الوجود إنه الظلال فأتى لهذه الأودية بالفلسفة التصوريَّة على أسس هذا التعقل الرصين القائل ألا وجود إلا لـ « طي » المجرَّد !

باللاوتسية بلغ التفكير الإلهي في هذه الأودية أصفى ألوان الفلسفات فلسفة ، هي وإن لم تكن قد استكملت لها المراحل التي استكملت لليوبانيشادات الأوَل فإنها ، بإشاحتها عن المعرفة الظاهرية ، قد استمدَّت من الداخل المعرفة الصحيحة التي أتتها بالبرهان على فراغ السماء من إله تقيِّده الجسدية ويحدَّه المكان ! ومن الداخل أيضًا أتت

إننا نتحسَّس « طاو» ولكننا له لا نحسّ .. إنه غير ذي جسد ! أزلاً وأبدًا « طاو » سيظل عن الإدراك مطويًا ، والمرة بعد المرّة سيعود بك البحث عنه إلى ؛ اللا شيء ! »

«لاو تسو »

من « طاو طي كنج »

تحت تأثير هذا اللون من التفكير الإلهي تحرّر الفكرُ من الطقوس فـأي شيء لـ « طي » يمكنك من ثمّ أن تُقدِّم و « طي » إنما هذا اللا شيء وهذا اللا شيء إنمًا ؛ نفس سرمدية ؟ !

كلا ! .. لا تصلك بـ « طي » ضحايا ولا قرابين ولا مُحرقات .. لا سفك دماء ضحايا ولا إضرام نار ولا إحراق لحم يصلك « بالنفس السرمدية » وإنما « بالنفس السرمدية » تصلك منك النفس .. !

النفس منك إلى « طريق طي » لك تقود عبر طريق سهل يتلخَّص في سليم وصحيح العبادة ...

أيها المُريد المسائل ؛

ما هي هذه العبادة السليمة الصحيحة التي تقود إلى «طريق طي» أو الطريق المستقيم ؟

إليك الجواب ؛

إن الطبيعة بطبيعتها خيِّرة والشرّ إنما من معارضتها واعتراضها من ثمّ فالعبادة هي ؛ إسلام النفس لـ «طي » !

إن الشر لا يقع إلاّ من معارضة « طي » والخروج عن قانونه ، ومادام الشرّ لا يقع إلاّ من معارضة « طي » والخروج عن قانونه ، فالأسلم أن تُسلم أمرك له ولقانونه تستسلم !

استقبال ما تأتي به الحياة بصدر رحب يملؤه الإيمان الصحيح بأن :

« طاو » ليس إلاّ الخير ، ومن ثمّ فلا تخش ، إذا إليه استسلمت باتباع قانونه الداخليّ، منه شرًا ...

وأى شيء في دنياك منْ دنياك تَخْشى .. ومستسلم أنت لطي ؟ !

ألق عن بالك البلبال وبالبلبلة لا تقلق منك البال ، وحسب ناموس للكون دع الأمور تتطور تطوُّر الأشياء ...

أسبل مقلتيك وأصمّ مسمعيك عن العالم الخارجي وعُدْ من عالم الوعي اللاّواعي إلى عالم اللاوعي الواعي ...

من ثمّ ، إذا طلبت السكينة النفسية والاطمئنان الداخلي ونشدت السعادة التامة ، الزم الـ « وو – وي » (٦) أو الاستسلام التام !

إنك إذا استطعت لذلك تحقيقًا عدت إلى المصدر والمبدأ العام الأول عدت إلى منشئك دونما علم منك ، واتحدْت دونما علم منك **بالمطلق** وأصبَحت لديك ، بهذا الاتحاد بالوحدة المطلقية السرمدية التي لن تستطيع بعد هذا الاتحاد عنها انفصالا ؛

المعرفة ! .

كلا ! .. إن « المعرفة » لا تأتي إليك عن طريق التجلّى الإلهي ولا بوسيلة المكالمة الإلهية ... كلا ليس هناك تجلٍ ولا مكالمة فلا جسد للإله حتى يُرى ولا صوت للإله حتى يُسْمَع !

كلا ! لن تنال « المعرفة » إلاّ من الداخل فإن « المعرفة » ليست إلاّ تلك المعرفة اليقينية التي تبلغها ، أنت النفس ، حين تعْرف أنك في ومِنْ الخضم اللامتجزئ لامتجزئ جزء !

بهذا اللون الفريد من العبادات تنتشر صحيح التعاليم اللاّوتسية

تجترف اجترافًا الجنوب من هذه الأودية بنداء ردَّده « شوانج تسي » ومن رجع صداه راحت أرجاء البلاد تُدوِّي :

إن الحكيم إنما المترفِّع عن جميع الآلام بإخضاعها لإرادته ! بهذا النداء تحوّل وادي «اليانج تسي كيانج » إلى هذه الصوفية الآتية بالأمن والسكينة إلى النفس ففي مهبّ التدهور السياسي هفا إليها من هذا الوادي القلب وشغف بها شغفًا اعتنق تحت تأثيره التعاليم اللاوتسية مذهبا إليه أتى في غمرة العواصف السياسية وطوفان الانحلال الاجتماعي بذلك الهدوء الذي شدّ منه الأواصر إلى «طي » .

ولكن ... المبدأ اللاُوتسي الذي يُردِّده « شوانج تسي » قائلا : « إن « طاو لمدركية البشرية غير قابل » لم يُفهم صحيح الفهم في المسمع الجماعي ومن ثمّ بدأ بالعقل الجماعي انحراف الطاوية الفلسفية إلى اتجّاه ارتدادي باعَدَ بينهَا والأصل فالمنطق الجماعي قد جَرَى قائلا بأن : اللاّ قابل للمدركية البشرية يمكن أن يُدْرَك بواسطة « السِّحر » !

أساء تفهُّم التَّبع وأتباع التُّبَّع المعني من المعرفة الداخلية والعزلة الصوفيّة التأملية والمعنى من الـ « وُو وي » ، أو الاستسلام التام فبدأ الاتجّاه إلى معرفة « المطلق » عن طريق استعادة كل ما قد حاكه العقل البشري وليدًا من صُوَر مادِّي العبادات !

إلى الماضي عاد التَّبّع فعادوا إلى « السِحْر » ... وبالقائمين بأمر هذا المذهب ومتعهّدي شئونه نشأت هيئة دينية أو جَمَاعة كهنوتيّة حولّت الرحاب الفلسفي اللاوتسي إلَى نطاق دينيٍّ حصرت فيه لاو تسو في أفق ضيِّق من وهم الخيال فقد قام لآهوت من حَوْل « لاو تسو » حوّل «لاو تسو» إلى نبي جاء بدين ! .. تَحوُّل ، به يطالعنا :

البدعة أضحت العقيدة الدينية الطاوية تنحصر في ؛ أن ، تجسُّد «المُطْلق» على السفوح الهندية بساكياموني من قَبْل ، في هذه الأودية قد تجسَّد «المطلق» بلاَّو تسو !

التشويه شُوِّهت الفلسفة اللاَّوتسية ، وكفلسفة صوفيّة غابت في دين خُلطت فيه التعاليم الصوفيّة بقواعد سحرية .. دين ، أضحى خليطًا متنافرًا كما نراه الآن في عهدنا هذا الذي مازال فيه الظل من هذا الدين على جانب من هذه الأودية منتشرًا ولها غامرًا بمعابده القائمة فيها والمؤدية فيها ألوان من صُور عبادات الماضي البعيد لطفولة العقل الإنساني وحداثته ، من ضحايا وقرابين فمازالت الضحايا والقرابين تُقدَّم وترفع ولكن إلى ؛

لاَّو تسو ؛ الآله الذي على الأرض قد تجسَّد في صورة ابن عذراء !

غاب لاَّو تسو كحكيم وفي أُفق المخيله الجماعية تجلي صورة تجسدِّية للآله آله وُلِدَ علي الأرض كابن عذراء

التشويه شوهت للاَّو تسو فلسفة لم تحتفظ عن لاو تسو إلاَّ بالقواعد الأخلاقية التي جعلها أساسا لتحقيق الاتحاد بـ «طي» ووسيله للترفع عن الحب والبغض معا والانصراف إلا عن الضروري من الأعمال لتحقيق الاتحاد التام إلى دين محوره هذه العقيدة التجسدية وله من صبغ حداثة العقل الصبغة حوّل التبع في وادي اليانج تسي كيانج هذه الفلسفة الصوفية التي وضع منها الأسس «الحكيم الأكبر» والتي للناحية الأخلاقية فيها جاء مؤكدًا بعد «الحكيم الأكبر» في الجنوب الحكيم الأول في الشمال عندما امتدت يد الزمن وسجلت المذهب الأخلاقي «الكونج فوتسي» . ...

هذا السجِّل العائد بأقدم ما يحتويه إلى القرن الثاني عشر ق . م . وبأحدثه إلى القرن السادس ق . م ، والذي تطالعنا فيه من السِفْر الأول شو - كنج » ومن السِفْر الثاني « شي - كنج » الأخلاقيات الطالعة على أنغام التسابيح وَهزج الأناشيد وضرب الأمثال وإلقاء الحِكَم بسرد القصص أسمى ألوان الفضائل !

بهاتين المجموعتين يطالعنا «كونج فوتسو » وقد اتَّخذ مبدءًا ؛

الفضيلة

ولتحقيق الفضيلة انقضت بالحكم الأول مراحل العمر حتى المرحلة التي تناولْ فيها نصوص « الكتاب المقدس » بالنسخ فنسخ منه « أي - كنج » السِفْر الثالث المنتشرة على صفحاته التغُيرات التي تُصورً الناحية العقلية للصين ، منذ القرن الثاني عشر ق . م ، القرن الذي ترك عليه طابعه النحوىّ واللغوي ، حتى القرن السادس ق . م ، مما حدا بتسميته « كتاب التغيُّر » بمعنى التطور ، ففي هذا الكتاب لم يلغ الجديد القديم بل راح بالجديد للقديم يُؤيد بالإضافات وبالتآويل !

أجل .. راحت اليد الكونج فوتسية تنسخ هذه الأسفار من « الكتاب المقدس » لتنسخ ، قبل نسخها السفر الخامس « شون - تسو » ، السفر الرابع « لي - كي » ، أهمُّ الأسفار في هذا « الكتاب المقدَّس » من حيث احتوائه على الطقوس والفرائض الدينية ...

من هذين الكتابين ومما يضمُّان من أجزاء ، وأسفار «سي - شو» و « ووي كنج » ، يطالعنا « المذهب الكونج فوتسي » كما يبدأ في التكوين وكما به ينتهي التكوين إلى تحوُّله إلى دين ...

على صفحات هاتين المجموعتين نرى « كونج فوتسو » في الحلقة

الأرج الفوّاح بجديد على « الحكيم الأول » فمنذ صباه وإلى القلب الكونج فوتسي ، « مؤسس أسرة شوو » ، حبيبًا !

يقينا ، لقد أترع العمر الكونج فوتسي الحلم بإعادة البلاد إلى الحالة التي كانت عليها في عهد هذا « الأمير» فقد اتّخذه «الحكيم الأول» للحكم السياسي مثالاً وضاعفت في نفسه هذه الأمنية ما كانت تختلج به خوالجه من مثالية تصبو إلى حياة طاهرة وسيلتها النبل وغايتها الفضيلة - أمنية ، ولّدت في الأفق الفكري « الكونج فوتسي » الاعتقاد اليقيني بأن لو سار الخَلَف على تقاليد السلف لما حلّت بالبلاد هذه الفَوْضى التي قد استشرت في سائر مرافق الحياة ! ... هذه هي العوامل التي عملت عملها في نفس « الحكيم الأول » والتي رأى نفسه ، تحت تأثيرها ، في ذلك الزمن الغارب من شبابه يتخذها مذهبًا يبني له من القواعد ما قد شرعه من تشاريع ورسمه من غايات وما قد حدّده من مناهج ونادى به من تعاليم صرّح بها أنها في جدّتها غير جديدة فإنها ليست إلاّ من القديم مُستمدّة ، وليرى نفسه تطويه الأيام وهو بإقليم بعد إقليم يطوّف منشده « أميرًا » يقوم بتنفيذ هذه التعاليم التشريعية والنهج التعليمية والمبادئ الأخلاقية ...

ولكن ... بين كل أولئك الأمراء لم يجد « الحكيم الأول » «شونتزو» أو الأمير المنشود !

عبثًا طُويت مراحل العمر بحثًا عن « شُونتزو » ...

عُمر ! .. طويت أيامه في أعوام انتهت بظاهر فَشَل بحثًا عن «الأمير المنشود» ...

عمر ، في مغربه جلس « الحكيم الأوّل » يستعرض مراحله ...

إذا كانت للقوة الإيجابية الغلبة في كائن ، وهذا من ترفعّت منه النفس عن الاهتياج بأحاسيس الحُب والبغض معًا ، أصبحت نفسه في حالة من الاعتدال يُعبِّر عنها بحالة الانسجام و « طاو » وحين يسود الانسجام النفس يسود الحياة الخير ، ويُصبح صاحبها ؛ حكيمًا .

وإذا كانت للقوة السلبية وللقوة الإيجابية التساوي في كائن ، وهذا من تكون حياته سجالاً بين نوازع الخير ونزعات الشرّ .. ظلّ صاحبها في درجة الحكمة العادية الخاضعة للمؤثرات العُرْضة لعواصف الأهواء وهذا من يكون ؛ عاديًا ..

أمَّا إذا كانت للقوة السلبية الغلبة غلبت نزعات الشر في كائن نوازع الخير فيه ، زلَّت عن الطريق الطبيعي قدمه وهى من درجة الحكمة العادية إلى الدرجة التي تُحدِث السوء وتنتج الشر ... وهذه هي درجة : العوام ! .. من ثمَّ يقينا ! .. يقينًا أن المسبِّب في تغلُّب قوة على قوة في الإنسان إنمًا ؛

الإنسان نفسه ! .حُرٌّ الإنسان وله مطلق الاختيار في تغليب أيَّة قوة فيه على الأخرى .. وهنا نرى أن من أركان هذا المذهب **حرية الاختيار** التي تؤكدها لنا :

نظرية الخير والشر في المذهب الكونج فوتسي

إن الثابت من المشاهدات أن المجموع من الكائنات الحيَّة، إلا القلَّة، يتحرك ويعمل مقودًا بالأهواء ، الأهواء لا تنتج إلا السوء فالشرّ .. أما علّة هذا السوء ، علة الشر ، فالحيدة عن الانسجام بين الكون والكائن بالحيْدَة عن « قانون طاو » أو قانون السماء !

وأي ضمان يكفل للإنسان الطمأنينة بأنه سائر دائمًا في طريق «الواجب» وأن هذا الصوت المناديه من الداخل رادعًا عن الشرُّ آمرً بالخير هو صوت الطبيعة والحق والحقيقة ؟ !

إلى « كونج فوتسو » وُجِّهت هذه الأسئلة وهو يعلِّم ؛ « أصغ إلى هذا الخير في طواياك ! ... اعمل الخير ، لا طمعًا في أنك ستثاب عليه في هذه الحياة أو في حياة تالية قد تأتي ونما اعمل الخير لأنك يجب أن تعمل الخير لأن في الخير نفسه لك الجزاء ! » فأجاب تلك الإجابة التي بها يطالعنا :

القانون الأخلاقي في الداخل النافي الوحي الهابط

إن الطريق العملي لتحقيق « الواجب » هو الإذعان لصوت الطبيعة، وأمًا ما هو «صوت الطبيعة » فإن صوت الطبيعة إنمًا « صوت طاو » نفسه !! أم ليس « طاو » هو الطبيعة والطبيعة هي « طاو » ؟ ! ومن ثم فصوت الطبيعة هو صوت «طاو».

من ثم لا تخلط بين صوت الغريزة منك و « صوت طاو » فيك ! ... إن «طاو» قد أودع فيك الغريزة ليترك لك حرية الاختيار حتى تقوم بعملك حرًا إذ أن العدالة تقتضي أن تسبق الحرية تأدية « الواجب » !

ولكن.. ألا يتُغير هذا « الواجب » بتغُير الأفراد والزمان والمكان ؟ سؤال ، عليه تأتي من هذه الفلسفة الأخلاقية الإجابة بالنفي ! .. كلا ، لا يتغيُّر « الواجب » بتغيُّر الأفراد إنما هو في الكُل واحد لأنه صوت طاو وصوت «طاو » ، وطاو إنما الخير ، أبدًا الآمر بالخير ، وعمل الخير لا يتغير في زمان عن زمان ! من ثم أصغ إلى الصوت الداخلي ، القانون

وحينذاك ... متى تكشَفَّت لك نفسك عن نفسك تكون قد وصلت إلى تلك الدرجة التي يتمّ بها فيك للقوة الإيجابية على القوة السلبية الغَلَبة فيتم لك الكمال ... وبالكمال تُؤَلِّف والسماء والأرض ثالوثًا تقف فيه على الأرض ، أنت ، رمزًا للحكمة وصورة للانسجام والوحدة !

تأمل في نفسك ! إن وسيلة الإنسان لمعرفة نفسه : **التأمل في نفسه** كلا ! .. لا التأمل النفساني اللاوتسي ، القاطع الصلة بالظواهر الخارجيّة ، وإنما تأمل النفسُ النفسَ بمراقبتها عن طريق صلتها بالخارج الذي يستحيل عليها قطع صلتها به فلن يصل الكائن أبدًا إلى مطلق الانسجام والكون إلاّ متى ضمّ إلى المعارف الداخلية المعارف الخارجية...

يا أيها الإنسان : « إنك حينما تدرك طبيعة الأشياء عن قرب تصل بك المعرفة إلى أوج أوجها ... وحينما تصل المعرفة إلى أوجها تصبح الإرادة كاملة وتصبح دقات القلب منتظمة مع القانون ... وحينما تصبح دقات القلب منتظمة متفقة مع القانون يتخلص الإنسان من الآثام وحين يتخلّص الإنسان مِن الآثام يشرع في توطيد دعائم النظام والانسجام في الأسرة وإذا ساد الانسجام الأسرة بلغ الحكم في المدينة درجة الكمال وإذا بلغ الحكم في آدمية درجة الكمال استَمْتَعتْ الإمبراطورية بالسلام التام ! » .

من « شونج يونج »

على فكرة وعقيدة النظام الكوني أو الانسجام العالمي لتلك الموجة الفكرية التي امتدت من الألف الأول ق . م جاء العقل الإنساني ، المتمثل في الشمال من هذه الأودية بـ « كونج فوتسو » ، يرى أن العلّة في هذه الفوضى مرجعها الحيدة عن خطى القدامى ، وفي مهبِّ ريح الفوضى

دراسة التاريخ السياسيّ الصيني في تلك الفترة الزمنية التي بدأ فيها تكوُّن الكونفوشيوسية ، رأينا أن المجتمع الصيني ينتظمه نظام الطبقات إلى طبقتين : نبلاء ، وشعب.

في جانبٍ تقف الناحية الشعبية محكومة بالقانون المدني بينما في جانب تقف الناحية العليا غير خاضعة لهذا القانون فلديها موروث «قانون لي» أو قانون أدب اللياقة القانون .

وبين القانونين ، القانون المدني الحاكم الشعب ، والقانون التقليدي المستقي مبادئه من القانون الأخلاقي السرمدي اللأمستور عن النفس والمسطور على صفحات القلب ، تقف الكونفوشيوسية لترى :

أن القانون المدنيّ قانون واهي البناء والنتيجة وظاهري العلاج بينما أن القانون المستقى من الداخل إنما هو ، بما عليه مشتمل من مُثُل عليها ، قانون يتأصلُ في النفس عن طريق التقليد حتى تصبح مكارم الأخلاق عادة في المُقَلد.

ومن ثمّ : « إذا حاولنا قيادة الشعب بواسطة القانون المدني وأردنا استتباب النظام ، استطاع الشعب تأويل هذا القانون وتحويله إلى هواه دون أن يطرأ عليه من ذلك الأمر الشعور بالخجل ، بيد أننا إذا قدناه بالمُثل العليا وأقررنا النظام بواسطة قواعد اللياقة الموروثة أحسّ الشعب بالخجل من عمل الشرّ ، وهذا الإحساس يدفعه إلى الخير » .

« من لو يون »

هنا تتجلّى روعة المذهب الأخلاقي الكونج فوتسي أو الكونفوشيوسي بإعطائه الطقوس معنى أخلاقيًا ، مُستَبْدلا النظر إلى الطقوس من شيء له فائدته « السحرية » إلى شيء هو الدليل على

سؤال ، وُجّه أيضًا إلى « الحكيم الأول » وعليه أتى منه الجواب ؛

« شعور الفرد بالآخر قد تكون هذه الكلمة ! .. فإن هذه الكلمة تتلخّص في ؛ عامِل الناس بما تحب أن يعاملك به الناس » .

وكيف يمكن ذلك ؟

ومن شفتي « الحكيم الأول » يأتي التعليم ؛

« **بالحُب !** »

وما « الحب » ؟

« حبُّ العالم قاطبة ! .. أحبب الناس قاطبة ولا تنتظر من أحد جزاء ففي هذا الحبِّ المستفيض من قلبك إنما لك الجزاء !

إن الحب يحمل جزاءه في نفسه !

الحبُّ يطمس الأنانية والأثرة وينتج الخير والسلام وبهذا تكف المنازعات وتتلاشى الحروب ..

إن قلبًا قد أترعه الحب لا يستطيع أن يقترف السوء ولا أن يعمل الشرّ » .

«كونج فوتسو »

ولكن ... كيف لنا أن ننمي في القلب منا بذرة هذا « الحُب » ؟ إذا أردت هذا « الحُب » فاسلك ؛

« الطريق الوَسَط » سهل « الطريق الوسط » وعلى النفس غير عسير فلا يكلفك إلا الالتزام ؛ **بالسنن الخمس**؛

فعلى الخير والاستقامة واللياقة والحكمةِ والصدق . هذه هي الفضائل المكلف بالتزامها كل إنسان والمكوِّنة السنن الخمس المؤلفة « الطريق الوسط » !

مُهْتَدين وضـالين من خـلال مؤلَّفـاته السبـعة يطلع علينا « الحكيم الثاني » صلب الإيمان صلابة حولّت الكونفوشيوسية من مذهب سمح إلى دين صلب .. « المهتدون » هـم الطائفة المؤمنة بالكونفوشيسية كدين حق و «الضالون» هم أولئك الذين بالكونفوشيوسية ، كدين حقّ ، لا يؤمنون .

ولكن ! .. هذا التحولُ الذي جاء في الشمـال من هذه الأودية إنما قد جاء كتحدٍ للجنوب ففي الجنوب ، كان في نفس الآن «تشوانج – تسو» ينشر اللأوتسية ويبشّر بها مُعلّمًا أنها الدين الحق !

وإلى ناحية أخرى أيضًا جاء هذا التحدي .. جاء إلى « المدرسة النفعية » التي جاء بها ، في هذا العصر الذي شملته الفوضى وساده الاضطراب ، « مي تي » غداة انسلخ من زمرة أتباع « كونج فوتسو » خارجًا على الكونفوشيوسية مستنكرًا أسبقية الكليات العامة على الأجزاء المحسّة الكونفوشيوسية وفي نفس الآن منكرًا إنكارًا تامًا لمعرفة البصيرة اللاوتسية ، فلقد جحد « مي تي» الطبيعة الكونفوشيوسية واستنكر ما بعد الطبيعة اللاوتسية ، ووقف يجلجل في مسمع الأجيال : إن منطق الكونفوشيوسية إنمًا الوهم والوهن والضعف !

على « كونج فوتسو » هوى « مي تي » ينتقده قائلاً: إن كونج فوتسو يقول إن سعادة المجتمع تقوم على صرح أساسه سعادة الفَرْد التي لا تتحقق إلاّ بالانسجام الآتي به القانون الأخلاقي العام المُسَيطر على جميع الميول الأولى للكائن الحيّ دون استثناء وهو الانعطاف الفطري للإنسان نحو الخير ..

ولكن ! ... السعادة إنّما تنحصر في توفُّر المال والصحّة وحسن العلائق الاجتماعية ممّا يجعل الانعطاف الفطري للإنسان ، المنفعة الشَخْصيّة !

من لا يُسَابِق غيره بإظهار المحبّة ومن لا يسارع بأداء الخير ، سارعت ناحية كبرى من المجتمع الصيني ، في غير حيدة عن المبادئ الأخلاقية الكونفوشية ، تُعلن اعتقادها الظاهري بأن « مي تي » رسول السماء !

وفي العقل الجماعي ، والعقل الجماعي بالمُغْمِضَات شديد الولَه ، رسخت تعاليم أخلاقية تستند في مصدرها إلى السماء !

أجل .. ! على العقل الجماعي غابت نقطة الضعف في هذا المذهب فاتَّبعه حتى كاد اسم « مي تي » يُغيِّب اسم « كونج فوتسو » وللسبب جاء « مانشيوس » يتحدَّى التحدي الذي تحوَّلت به الكونفوشية من مذهب إلى دين تحوَّل في نطاقه «كونج فوتسو » من فيلسوف إلى رسول ! و « بما نشيوس » هوت يد الدين الكونفوشيوسي بمعول الهدم مبيِّنة للتبّع نقطة الضعف في « الميتية » التي عليهم قد خفيت وبذلك تهاوت « الميتية » حتى هَوت أطلالا درست منها الآثار حتى تلاشت تمامًا باعتلاء « تسين شي هوانج طي » عرش الإمبراطورية ٢٤٦ - ٢٠٩ ق . م ، فإن التغير السياسيّ إبَّان هذه الفترة الزمنية من تاريخ التفكير الديني الذي قد برز بهذا الآسيوي الذي جاء قاضيًا على منشأ التدهور السياسي والانحلال الاجتماعي ، قد قَضىَ على الفوضى التي ظلت ترزح تحت نيرها الصين منذ الأجيال الأوَل حتى عهده ... فماتت « الميتية » .

ولكن !

من عجيب المفارقات أن هذه اليد السياسية التي هَوَت على المدرسة النفْعيَّة محاولة بحقها محق الرذيلة ، هي نفسها التي نراها قد اس حت قواها وهوت علي يالكونفوشيوسية هُوِّيًا أحال المدُّ الكونفوشيوسي جذرًا ! ولكن ... هذه اليد التي جاءت بحركة تجديدية استخفَّت فيها

الأيام وتدخرها لغدٍ هو هذا الحاضر الذي تراجع فيه المدّ الكونفوشيوسي حتى استحال جذرًا !

أجل ... تراجع المدّ الكونفوشيوسي فاستحال جذرًا والجذر أبدًا يترك فراغًا ! والفراغ إذا أصاب النفس حولّها ناحية ذلك الشيء الذي لا يملأ سواه الفراغ النفسيُّ ! وبهذا التحوُّل تحولَ الوجدان من الشمال ناحية الجنوب ينادي إليه اللاّوتسية التي كان قد أبعدها ، عن غمرة هذه الأحداث ، نسك به اشتغلت فشغلها عما يُترع الحياة السياسية من متغيِّر ألوان!

وسرعان ما امتد المُد الصوفي اللاوتسي الغامر الجنوب يزحف إلى الشمال الزحف الحثيث الذي استحال به الجذر اللاوتسي مدًا ! ورفَت على الشمال روح « الحكيم الأكبر » تنفث فيه روح السلام ... ولكن سرعان ما عن الشمال تراجع المدّ الممتدُّ من الجنوب فسرعان ما هدأت الثورة !

للثورة أهدأ مرور الزمن فقد طوت راحته « تسين شي هوانج طي » ونشرت « ليوبانج » مؤسس « الهان » أو الأسرة التي ظل منها الظلّ مُظلا هذه الأودية نيِّف وأربعة قرون من الزمن «٢١٦ ق . م – ٣١٩ ب . م» والتي ما استهلّت حكمها حتى عاد النور الكونفوشيوسي من جديد يشعُّ على الشمال !

أجل ... للحقيقة نور قد يخفت وقد يخفت طويلاً بيْد أنه مهما طال وامتد عليه المدَى فأبدًا لا يخبو ... لقد أُحرقت كتبَ الكونفوشيوسية ولكن كان اللهب المتصاعد مِنْ هذا الإحراق الجذوة التي ألقيت في القلب فملأت الأرجاء من هذا القلب ضوءًا اشتدُّ توهجه ببدء الحكم الجديد !

فحسب ويجعلها جبرية وإنما ... بنفسه يذهب إلى ذلك الضريح القائم في بكين وإلى ...إلى ذلك الثاوي الحَزِنْ في هذا الضريح لأنه لم يجد « شونتزو » أو الأمير المنشود ، يطلق البخور ويرفع الضحايا بينما تتمتم شفتاه :

« عمَّن كنت تبحث ؟ ... فأنت ! .. أنت ... الأمير المنشود ! أنت المُقدَّس القدسي ؛ كونج فوتسو ! »

منذ هذه اللحظة التي اتُّخذ الشمال في هذه الأودية ضريح « كونج فوتسو » مُصلًّى واعتبر الثاوي فيه مقدَّسًا ، ملأ «كونج فوتسو » الوجدان الصيني وَجْدًا واسترسلت الشفاه عَبْر الأجيال في ترديد ترسل له من التناجي هذه الصيغة : « عظيم أنت !

أنت الكامل الفضيلة .. الكامل المذهب الكامل بين العالمين ! ... قطٌّ ليس لك بين الناس مثيل .. عظيم أنت وعظيمة تقوم سننك وقوانينك المتحدِّرة من جيل إلى جيل تكرِّمك الملوك وبإجلال نقترب منك تملؤنا الروعة بين رنين الأجراس ودفيف الدفوف ! »

منذ تلك اللحظة التي ارتفع فيها « كنج فوتسو » وتحوَّل إلى رسول، أضحى ضريحه مزارًا وأمسى على المؤمن فريضة واجبة زيارته إذا ما جاش بالمؤمن الشوق وراح يؤدي من شعائر العبادة تلك الشعيرة ، التي أداها نفس « الرسول » ، وانطلق إلى « طيِّ شان » يؤدي فريضة الحج !

أصبحت زيارة الضريح الكونفوشيوسي فريضة واجبة على المؤمنين وجزءًا من شعائر الحجِّ ، كما أضحت ذكرى مولد صاحبه عيدًا رسميًا تحتفل به البلاد ، فإن بمولده (٨) تحتفل الصين من كل عام حتى

إن الإمبراطور قد تلقى ، في الرؤية ، أمرًا بإدخال الدين البوذي الصين !

بالمبشِّرين من حاملي كتبها دخلت البوذية ، بمذهبها المهاياني ، هذه الأودية ، وبما نسجه هذا المذهب حَوْل « البودها » من أساطير تنبَّهت نواحٍ في الصين فاستشعرت أن للكونفوشيوسية بقوانيها الأخلاقية قيودًا، فالكونفوشيوسية دين يتطلب الكمال الخلقي ويجعله فريضة محتومة على التُبَّع ، والتُبَّع إنما بشر مُعَرَّضون للخطيئة بل ومرتكبوها بينما البوذية فدين ، رغم تطلبه الكمال الخلقي ، يقف فيه « البودها » ، من الخطيئة ، **المخلِّص** !

بهذه العقيدة عقيدة الخطيئة والخلاَص دخلت البوذية الصين لتتفرَّع من بعد إلى طرائق ليس المجال هنا بصددها لابتعاد هذه الفروع عن الأصل ووقوفها فيه موقف الإضافيات ، ومن ثمَّ فلا يهمنا إلاَّ البوذية «المهايانية » التي رفت على هذه الأودية بعقيدتها في المخلِّص والخلاَص .

على اللّب الصينّي استولى هذا اللون الجذَاب الذي ألْقته «المهايانية» على « البودها » والذي تراءى تحته « البودها » على هذه الأودية ، ترائيه على أعلى تلك السفوح ، ألوهة مطلقة تجسَّدت على الأرض بشرًا لخلاص الإنسان !

وحتمًا كان إن يهفو القلب إلى « البودها » الإله الذي على الأرض قد وُلد في صورة ابن عذراء وتجسَّد لخلاص الإنسان من الخطيئة والعذاب ، وحتمًا كان أن تتغلغل محبَّته من الشُغاف إلى السويداء وأن يرتسم بين الضلوع صورة حفَّت بها القدسية من كل جانب !

هذه هي الصورة العاطفية التي أحلَّت البوذية في القلب الصينيّ

فـــالمُطْلَق « الأتمـان » إنما هـو نفس المطلق « طـاو » ! والبـــودهـا ليس إلا صـورة مماثلة للحكيم الأكبر ؛ لآو تسو ...

ما التـعاليم البوذيّة إلاّ ضـرب من القدسيَّة الطاوية والمُثُل اللأوتسـية فالبوذية كاللأوتسية تُعلِّم الاستسلام التّام وتُعلِّم أن الحياة على الأرض لا تخرج عن كونها معبرًا على نهرٍ قُدِّرت لإنماء الوعي ... ومن ثمَّ فالديانتان تتـلاقيـان في وحدة يبـرز فيـها كل منهمـا . لآو تسـو والبودهـا ، للآخـر صـورة !

أجل .. صـورتان، لاو تسو والبودهـا، لحقيقة واحدة فإن ؛ البودهـا ، الصـورة التجسدِّية للمطْلق ، لم يكن في إحدى تناسخاته إلا ؛ لاو تسو !

هنـاك ! هناك على تلك السـفـوح ، بَعْد هـذه الأودية وبعـد اعـتـزاله الحـيـاة الصـينيـة هنا ، عـاد لاو تسـو بالتناسخ إلى التـجسـدُّ مـسـتـأنفًا رسالته المنحصرة في الخلاَص ، تحت صفة البودهـا ..

الصـورتان ، « للمُطْلقَ » صـورة ! .. صـورة ، تقف هناك كالبودهـا » وتقف .. هنا كلاو تسو .. وكلاهما قد ولد على أطهر صورة فكلاهما ؛ ابن عذراء ! وسَطَعَ من جديد في الآفـاق الصـينية لاو تسـو ولكن ! تحت هذه الصـورة الجديدة ، كصورة تجسدِّية للمطلق .

تأثَّرت اللاوتسـيـة بالبوذية في عـقـيدتهـا الجـوهـرية تأثُّرها ببـعض مبادئها الأسـاسـية فـأقرَّت للثواب والعقـاب البوذي عقيدة لم يكن لـها قبل اتصـالـها بالبوذية في اللاوتسـيـة أيّ أثر فـدخلت المعتقدات البوذية الدين الطاوي ممَّا عـاد بالجـانح من اللاوتسيين إلى اللاوتسـيـة فـالإيمان الدالف من هذا المزج قـد قَوَّى الطاوية التي تحـوَّل في نطاقـهـا « لاو تسـو » إلى صـورة جديدة تتنافر تنافرًا كليًا وصـورته القديمة . بينما راحت البوذية ،

ائتلاف اللأوتسية والكونفوشيوسية ضدّ البوذية

بين هذه الأديان الثلاثة ظلّ التطاحن سِجَالاً مسرحه هذه الأودية حتى سنة ٨٤٥ ب م حتى هذه الفترة الزمنية التي ، فجأة ، يطالعنا خلالها ائتلاف الكونفوشيوسية واللاوتسية وتضافرهما معًا ضد البوذية لأن هذا الدين الدخيل قد تبعه دين دخيل آخر يحمل اسم «المسيحية » تقوم منه القوائم أيضًا على أُسس فكرة التجسُّد الإلهي على الأرض بشرا في صورة مخلِّص وابن عذراء !

إلى هذا الدين الدخيل الحامل اسم المسيحية اتّجه الانتباه اللاهوتي في نطاقيّ الطاوية اللاوتسية والكونفوشيوسية ليتجه هذا الانتباه في إرهاص إلى أن هذا الدين الذي بدأ تيّاره بمبشريه يجري مُتوغِّلا يتغلغل إلى القلب الصيني إنما شبيه كل الشبه بالبوذية حتى ليمكن القول بأنه صورة جديدة للبوذية ومن ثمّ فهو دين نذير أيضًا بالخطر على الدينيين الوطنيين لبلوغه الشُغاف من القلب الصيني !

وتكاتف للدينيين الوطنيين كهنوت أثار الثائرة الجماعية ضدّ الدخيلين فثارت هذه الثائرة التي إذا ما أُثيرت فثارت انطلقت محمومة تقذف بالحمم غير لاوية على شيء ! ووقعت تلك الواقعة التي انقضّ بها أصحاب الدينين الوطنيين على معتنقي الديانتين الدخيلتين تقتيلا كانت به تلك المذبحة التي تركت اللأوتسية والكونفوشيوسية تتنبهان إلى النزاع القديم بينهما فما خَلا لهما الجو إلا واستحال التوافق بينهما إلى نزاع... نزاع استمرّ حتى مشرق عهد «سونج » ، ٩٦٠ - ١٢٧٩ ب . م ، العهد الذي استعادت في مشرقه البوذية مكانتها ففي حُمى هذا النزاع المستعر بين الدينين نشطت البوذية واستعادت في ناحية قوية من القلب الصيني

أنفاس الزمن انتصار الكونج فوتسية وامتدت يده تسجِّل في صفحة للتاريخ الديني منتشرة حتى الآن !

سيادة الكونج فوتسية وقيامها ديناً رسمياً للصين

للحركة العقلية عن طريق الناحية الخلقية تزَّعمت الكونج فوتسية هذا التزَّعم الذي لم يترك إلا الضئيل من المكان للاوتسية وللبوذية والذي أضحت به، منذ ذلك العهد حتى هذا العهد، لهذه الأودية الدين الرسمي !

كدين حقٍّ وكدين رسميٍّ ، رسخت الكونج فوتسية منذ وطدت في عهد « سونج » منها الأركان ... أركانٌ وطدت بكهنوتٍ ، مِنْ حول المعابد القائمة باسم « كونج فوتسو » قام ، انتظم نفسه إلى طبقات وراح يُضفي على مظهره الخارجي صفة العصمة ويمسح نفسه بمسحة القدسية ويتخِّذ « التقاليد » في يده قيودًا يُقيِّد بها « المؤمنون » ممًا أصبح به هذا الدين لا يحمل إلا من « كونج فوتسو » الاسم وإلا من تعاليمه الأساسية ظاهري التعاليم .

أجل ... لقد انحرف هذا الدين عن أصله والأيام تسير وتُديل دورتها دولة « سونج » ١٢٩٥ ب . م باحتلال المغول الإسلامية الصين ودخول الإسلام الصين كدين ، أيضًا ، على هذه الأودية دخيل به سارت أيضًا في هذه الأودية الأيام حتى اليوم من عصرنا هذا الذي نرى فيه الإسلام قد رسخ في ناحية من المجتمع الصيني ، غير ضئيلة العدد ، رسوخًا مذهلا وعجيبًا ! يملأ قلبها منه فيض الإيمان وتنطلق من محاجرها حار وسَخين الأدمع حنينًا إذا ما تذاكرت ذكرى صاحب هذا الدين وإذا ما قرأت كتابه « المقدَّس » ولو لم يفهم اللّغة منه ولا منه وفيه المعنى إلاّ من بينها العدد الضئيل !

تتحكم في عقلية الجماعات أديان متنافرة وكلّ في نطاقها بمعتقداته متمسكٌ ومُستمسك ، وكلّ لديه دينه الدين الحق ..

أديانٌ !

أديانٌ ، يروح العقل الإنساني ، في رحاب تفكيره الحرُّ ، لها مُستعرضًا ... ولكن إذ يروح العقل الآن لها مستعرضًا فليس إلاّ ليقف في توقُّفٍ يتأمَّل الكونفوشيوسية ، الدين الرسميُّ وليس إلاّ ، ليسترعيه أن هذا الدين الرسمي المُتَمثل بالطبقة العُليا إنما يقف بتقاليده ومادّيّ عباداته عقبة تحوُل دونه وحرِّ التفكير ! . ومن ثمَّ فتحوُّل العقل إلى هذا الدين مُحَاولا محو سلطانه العقيديّ والسياسي من النفس والعودة به إلى الحالة التي يقف فيها في مكانته الطبيعية التي كانت له قديمًا ، ولكن ليرى العقلُ أنّه بمحاولته محو هذا السلطان العقيديّ من النفس إنما يتحوَّل نفسه نحو أفق جديد ! ..

أجل ... نحو أفق جديد يتحوَّل الفكر الحرُّ في حين الآن ...

أفق جديد عن شفافية ينحسر ونحوه لا يجد العقل الإنساني نفسه منجذبًا وإليه مُتطلعًا إلاّ لِتُطالعه في أرجاء هذا الأفق صورة لاو تسو ففي هذا الأفق الجديد ، الذي إليه يتطلّع العقل الإنساني في هذه الأودية ، تُطالعه اللاوتسية ! ... اللاوتسية ؛ على صورتها القديمة ، في هذا الأفق الجديد منتشرة ، من ثناياها يشعّ « طاو » !

كلا ! ..

لا « طاو » الطاوية اللاوتسية التي عن التَبع حولَها التَّبُّع إلى دين وإنما « طاو » لاو تسو ! « المُطْلق » الذي همست باسمه في واد «هان كو» الشفاه اللاوتسية همسًا ينساب الآن دويًّا يُسجّل ؛

أن الدين الحق إنمًا هو نفس هذه الحاسّة المنبجسة بين الضلوع والمتفجِّرة بين الجوانب فإن وجودها يقوم برهانًا على صلتك الدائمة «بالمجهول » ! « المجهول » المرسل صوته من خلالها همسًا يدوِّي بين جانبيك مرشدًا ومنذرًا وهاديًا يناديك باعتناق الاستسلام له دينًا تكاليفه تنحصر في إنماء بذرة الخير في قلبك حتى تنمو فروعًا تربط بين الكائنات طُرًّا برباط الإخاء العالمي وفي ظلالها يتفيأ العالم قاطبة السلام !

من ثمّ فاعْلَم ؛ أن الدين الحقّ إنما ؛ الإنصات إلى الصوت الداخلِّي المدوِّي بالحب ؛ والإخاء العالمي ! والسلام ! فإن ؛

« الإنسان الكامل هو الذي قد فَرغ قلبه من الكراهية وأفْرغ فيه الحُب !»

من « طاو طي كنج »

« إن الإنسان الكامل هو الذي لديه قد انحصر الهدف في نشر السلام ! »

من « طاو طي كنج »

هذا هو الدين الحق ، دين طاو ، المتلخِّص في كلمة واحدة هي أُس القانون الأخلاقي المُسطَّر بين الجوانح ؛

الواجب !

إلى هذه الفلسفة أو هذا الدين العقلي ، الذي كان قد نشره على هذه الأودية العقل الإنساني في تَمثله بلاو تسو فنشر منه « طاو » في صورة « الواجب » ، يلتفت العقل المُحْدث في صين الآن ، وإليه ، على هدى الفلسفات الحديثة ، يتنبّه فيتنبُّه إلى هذه الفلسفة الصوفية التي

الديــن في إيــران

الدين على هذه الهضبة ، الساكنة في أحضان طبيعة طبيعتها التضاد ، رواية ترويها للزمن أنفاس تُحدِّث ؛ إن على هذه الهضبة قد بدأت رواية الدين غداة انتشر من البشرية على أرضها الظِّل وفي أرجائها جال منها العقل فتراءت له رياحها أرواح شرٍّ ونسائمها أنسام خير فقسَّم المنشأ إلى منشئين !

وبهذه العقيدة سار الزمن على هذه الهضبة وعليها من البشرية تنساب الفروع التي نشرتها منه اليد والتاريخ ليلا لنعرفها أمة ، بالسومرية والدرافيدية شبيهة ، تحت اسم ؛ الطاجقيين .

وبالطاجقيين تطالعنا على هذه الهضبة عقائد ليل التاريخ في ؛

الدين في العهد الطاجقي

التفكير الديني الطاجقيّ بالدرافيديّ والسومريّ شبيه بل ومُماثل فلديه ، كما كان لديهما ، كل القوى الطبيعية أرباب وعلى هذه الصورة عُبدَت مظاهر وظواهر الطبيعة على هذه الهضبة كمتعدِّد أرباب وكان لكلٍّ رب معدَّد اختصاص ، بيد أن لتستدير كلها ، استدارة الأرباب الدارفيدية والسومرية ، حول محور واحد ... محْور ، يحوطه الغموض ويكتنفه غَيْم الإبهام وعن المخِّيلة الفتيّة يبتعد كلما حاولت هذه المخيِّلة منه الاقتراب فمبهمة مازالت في أفق المخَيلة الفِجَّة تُحوِّم فكرة الرب الأعلى أو الإله !

واستمسك بهذا التقليد قبل أن يُستعاض كما أستعيض هناك ، بتضحية الكباش بدلاً من الأبناء .

تلك هي العقائد في ليل التاريخ والطابع من الدين كان الطابع ويد الزمن لمراحل العهد الطاجقي تنشر وتطوى لم يتغيَّر في العهد الطاجقي الدين عن أن يكون إلاّ محض طقوس حتى امتدت يد الزمن فطوت في سجِّل التاريخ صفحة ونشرت أخرى بدأت تُسطِّرها بتلك الفروع التي جاءت بها إلى هنا من تلك الدوحة الآرية التى كانت فروعها تمتد من الراين إلى قزوين بينما كانت حضارات العنصر السَّامي ومدنيات الشرق القديم قائمة ، فَمِنْ هذه الفلول الزاحفة قبائل من أودية الدانوب حتى مُعْتليات البنجاب أمدَّت يد الزمن من فروع الشجرة الآريّة إلى هذه الهضبة فرعًا وفي بكْتَرْيا ، أو بلخ ، غرستها ونشرتها في أرجائها لِتُعرف هذه الهضبة ، نسبة إليها ، باسم ؛ **إيران** .

أظلّت هذه الفروعُ القوية من فروع الآريّة « طاجقا » فطوتها بينما كانت تتشابك فيما بينها وتتنازع قبائلها السيادة على هذه الهضبة لينحسر فجر التاريخ وفي شرقيِّ البلاد وجنوبها قد استقرّت من هذه الدوحة قبيلة قوية من هذه القبائل الزاحفة، تطلع على التاريخ تحت اسم ؛ **فارس** .

وفي امتداد غامر إلى جانب هذه الفروع الفارسية امتدت من نفس الدوحة فروع أخرى تعود بأصلها إلى قبيلة أخرى قوية من الفلول الزاحفة تتَّخذ مقرًا غربيِّ هذه الهضبة حيث فيها قامت تسود التاريخ وتطلع على صفحته تحت اسم ؛ **مادَى** .

بهذا الامتداد الآريِّ انقشع عن هذه الهضبة ليل التاريخ وانبلج من

الاتجاه إلى تأليه أبرز مظهر من مظاهر هذه القوى النورِّية وأبرز مظهر من مظاهر هذه القوىً كانت الشمس أو؛

« **مِيْتهْرا** » بـ - « مِيتْهرا » لج العقلُ البشريٌّ على هذه الهضبة حلقة التألية الشمسى... وبـ « ميتْهرا » قامت الميتهرية مذهبًا محوره رب أكبر **هو نور** يُضيء تجلّيه ظلمة الظُلَم !

ولكن .. لئن فسَّر العقلُ الإنساني ، المتمثِّل بطبقة « الموَابِذة » أو الفقهاء وفي نفس الآن الحُكّام والقُضاء ، هذا التفسير والأيام به تسير في أحضان طبيعة ذات تضادّ ، فليس إلاّ ليأتي بتفسيرٍ آخر كان وحيه ، أيضًا ، هذه الطبيعة ذات التضادّ فقد رأى نفسه ، دونما علمٍ بنفسه ، في رضوخٍ لوحيها وإيحائها يُرجِّع في أحضانها نفس العقيدة القديمة فيتنادى ؛

إن الوجود إنما التضادّ !

وبعامل هذا الوحي والإيحاء راح العقلُ الحَدث يُقسِّم الربوبية إلى أرباب خير وأرباب شرّ .. ولكن ليتوقّف لفترة عملت فيها لوالبه الفكرية تُفكِّر في أمر هذه الطبيعة ذات التضاد .. فترة ، أعلن بعدها أن التفكير منه قد تحولَ من الشك إلى اليقين بأن هناك مصدرين أساسيين للشرّ والخير ...

كل ما في الكون فمنقسم إلى ما يأتي بالإيمان اليقيني بأن الكون تتقاسمه قوتان متكافئتا القدرة والمقدرة فإن الكون يتِّسم بسمتيّ الخير والشرّ وعلى اتِّسام الكون بهذه الصفة وبتلك يأتي من نفس الكون نفسه البرهان ... برهان تُسطِّره على صفحة الفضاء يد الزمن بأحرف مدادها هذا الغَسَق المتهافت إلى ظُلَم وهذا الشَفَق المتفجِّر عن نور ...

إلى ربٍّ ومظهر للنور وتلاشت عبادته في عبادة المحُتجَبْ ، المصدر والأصل لكل نور ولكل خير؛

« أهورا مزدا » !

أجل ... لقد سارت الأيام بالأيام وفي هاوية الزمن هوت الحقَب لنرى أن البذور من الفكرة الغامضة المبهمة في تربة النفس البشرية قد نمت في أرجاء الوعي الإنساني على هذه الهضبة وأن المنطق قد حاجٌ العقل بأن ؛ إذا كان « أهورا مزدا » هو للنور من « ميتهرا » المصدر فالوهة « ميتهرا » إنمّا الوهة سرابيّة تبهت في ضوء حقيقة الوهة «أهور مزدا » !

إلى هذه الاستقامة في التفكير اتّجه الفكر مُستّهلا المرحلة القديمة بتعقّله أن قطّ لن تكون الألوهة إلاّ المصدر الخالص للنور وللخير .. وسجّل هذا التعقل إعلانه رأيه الذي انساب همسًا ما لبث أن رجعته آفاق هذه الهضبة دويًا أصداؤه تتجاوب في ترديد ؛

إن الإله الخير ليس بميتهرا فالشمس نور مرئي وأما ذاك ! ذاك فنور غير هذا النور المرئى ، إن الإله الخير نور لا مرئي ..

إن الإله النور لا مرئى نور وليس إلا من قواه هذا النور المرئي ومن ثمّ فلا نعت له بأكثر وصفًا من آهورا مَزْدا أو هذا الاسم الذي يجعله مصدرًا للخير والذي تقتصره الشفاه في حالة التناجي وتناجيه باسم ؛ « مَزْدا » !

بالاعتراف بالوهية «مزدا » سجلّت يد الزمن في سِجِّل الأديان ؛

الدين المزدي

بالاتجاه إلى « آهورا مزدا » أو « مَزْدا » كإله خير قام الدين

كلا ! ..

لم يختلف الدين المزديّ عن الديانة الميثْهريّة القديمة في اعتقادها بالأرباب فبالتعدُّد أخذ وبتعدُّد الأرباب دان بيد أن عن الأرباب تُفصلً للإله ، في الدين المزدي ، مكانة فهي ليست إلاَّ قوى عاملة تُؤلِّف حاشية للإله وتلتّف طوائف تكون قوى الخير وقوى الشَر حول كلا الإلهين فالألوهة لم تقصر حتى الآن على « مزدا » وإنما يشاركه فيها «دروج» .

أجل ...

مازال العقل مُوزّع التفكير بين ؛ « آهورا مَزْدا » النور المُوْجِد النور والخير ومُزهر ومُثْمِر الشجر وأليف الأنعام وخاصة كل ما هو بالنهار وبالحياة بشير وبين «دروج» الظلام المُوْجِد الظُلَم والقفر وسُّام النبات وكاسر الحيوان والهوام والطفيليات وكل ما هو بالمرض آت والمرض بالموت نذير ...

بين هذين الإلهين مازال العقلُ يقف حائر التفكير فهو لئن جافى بطبيعته « دروج » وأقبل بفطرته على « مزدا » فليس إلاَّ لأنه يرى أن الكون إنما ساحة نضال ونزاع بين قوى هذين الفريقين وليس إلاَّ لأنه يرى نفسه قسمًا مشاعًا بين المتنازعين ، وليس إلا أن يقوده المنطق إلى أن يرى أن مصلحته الشخصية تُحتِّم عليه كفّ غضب الطائفة الواحدة واستجلاب رضا الطائفة الأخرى .

مازال العقل ، حثًا للرضا ، إلى مصدر النور والخير والحياة يُقدِّم القرابين .. ومازالت العقل ، درءًا للسخط ، إلى مصدر الشر والظلمة والموت ، يرفع القرابين والتقدمات يُقدّم ! ومازال العقلُ يُطلق ألسنة اللهّب لتحمل إلى الأرباب ، درءًا وحثًا ، المُحرقَات !

أديان العصور البرونزية وعلى الأخصُّ بالدين الفادي وعهد «البراهماناس » و « الأرانياكاس » فالعبادة فيه تؤدي في صورة أداء الطقوس ولأدائها يتعهّد العقل الإنساني نفسه ، فقيها ، فكما كان هناك مُتمثّلا بطائفة الكهنوت البراهمي كان هنا متمثّلا بهذه الطبقة الحاكمة من الفقهاء ، طائفة الكهنوت الموبذي .

تحت صُور هذه المرحلة المقتربة من فجر الشباب للعقل البشري امتدّ العقلُ على معتليات هذه الهضبة يعتلى الجبال يبتغي.. لنفسه دنوا ممّن في السماء وعلى هذه القمم راح يركع ويُسجد مصليًا ويُرسل الضحايا مُحرقات إلى «مزدا» المتمثل في كل خير مُتّخذًا في صلاته إلى الإله الساكن السماء قبلة أرضها السماء ... وقبِلةً كانت الشمسُ في صلاته إلى الإله نهارًا ، وأما ليلاً ... ليلاً ، و « مزدا » روح الخير والخير مصدر النور ومن ثمّ ، وهو النور اللامرئي المضاد للظلمة والظلمة روح الشر ، كانت القبلة في الصلاة إلى الإله ، النار !

كالنور، النار، كلاهما للظلمة مُبدّد ..

إن « مزدا » ، كنور ، يُحارِب الظلمة بتجليه في الشمس نهارًا ويحارِب الظلمة ، والنار لظلمة الليل طاردة ، بتجليه ليلا في النار

كلا ! .. ليس الإله نفسه هذا النور المرئي في الشمس كلا ولا هو نفسه هذه النار المرئية ، وإنما ، وهو النور اللا مرئي ، من فيض نوره اللا مرئيّ هذا النور وهذه النار... ومن ثمّ فليس كمثل هذين المظهرين ، النور والنار ، من مظاهر التجلي الإلهي بأفضل للصلاة إلى الإله من قبِلة !

للسبب قُدّست على هذه الهضبة ، تقديس النور ، النار ... وعلى القمم ، ليلا ، أشعلت لعبادة من ليس هو هى ولا هي هو وإنما ، والإله

ومن ثمَّ فاتجاه العقل يتساءل : أى معبد للإله يُقام وهذه الأرض ، ببقاعها، للإله معبد ؟

حَسْبُ العقل ، حيثما كان ، إشعال النار على القمم ليلاً يرى الإله فيها مُتمثِّلا وللعبادة له قِبْلة مقام الشمس قِبْلة النهار ..

الدين كان الدين محض طقوس ! ... بيد أن إلى جانب الطقوس كان ؛

القانون الأخلاقي في الدين المزْديّ

إن المزدية تقول ، إلى جانب عقيدتها في نظرتها إلى الطبيعة القائلة بأن هناك قَوَى متناقضة تسبِّب تصادمًا ونزاعًا بالوهة منقسمة إلى ثنائية من نور وظلمة أو خير وشر ، بأن في اللاّنظام المرئى للبصر نظام مستتر إلا على البصيرة وأن الحركة الواضحة في هذه الصُور إنما على محور ، نفسه نظام ، مستديرة ...

أجل ... إن هذه فكرة ليست بجديدة فقد طرقت ، في العصر الميتهري ، مطارق التفكير ورجَّعتها الشفاه دويًا بأن الوجود تنتظمه عجلة النظام أو « أرْتا » الكلمة التي إلينا بها يعود النغم الفيدي بـ « رتا » .. بَيْد أن والأيام قد سارت فارتحلت بالعقل مراحل التطوّر تطورت هذه الفكرة من فكرة «النظام» إلى فكرة «العدالة » ولتتخذ مظهرها الإيجابيّ ارتفع الصوت المزدي يُعلن :

إن عجلة الوجود التي تنظمها « أرتا » أو النظام ، إنما تديرها وتحكمها ، « آشا أو العدالة » !

وأداءً رجَّعت المزدية هذه الكلمة لترج أرجاء هضابها رجا ، تصف الوجود بالعجلة وتقول : إن الوجود تنتظمه عجلة النظام : « أرتا » المحكومة بالعدالة : « آشا » ! ...

الكهنوتي ، المنطق ليتنبَّه إلى التفرقة التّامة بين الخير والشر والرذيلة والفضيلة أو إلى القِيم الأخلاقية في الداخل ، وبهذا التنبه إلى القيم الأخلاقية سَطَعت في أفق النفس أضواء الفضيلة وتمثلت في ؛ **الصدق** .

غَدَت لديه الفضيلة متمثلة في الصدق ، فغدا لديه الصدق أس الفضيلة .. والصدق إذا غدا أسّ الفضيلة فليس إلاَّ ليغدو لديه ، بالتالي ، أس الرذيلة وأكبر الكبائر مُتمثلاً في ؛ **الكذب**

بهذا النموُّ المنطقي الذي فرَّق التفريق التَّام بين الرذيلة والفضيلة والذي قاد التفكير إلى أن يرى أن الفضيلة تنحصر في ألاَّ يأتي المرء من الأعمال في الخفاء ما يخشى لها ظهورًا يأخذنا العقل في نطاق هذا الدين إلى مشكلة « الثواب والعقاب » وإلى « مشكلة الخلود » ... بيد أن لا يطالعنا الرأى الجليّ عنهما إلاَّ ، من بعد ، غداة تناول بالإصلاح لهذا الدين العقل الإنساني وقام، في طور النضوج ، مسجِّلا :

الإصلاح في الدين المزدي

بـ « زَرْدَشت » أو « ذهب الصحراء » ٦٦٠ – ٥٨٣ ق . م . الثاوي في الضريح المرمريّ في « ناخشي – رستم » بالقرب من برسوبوليس تطالعنا أول صورة واضحة وصحيحة تمثِّل فيها الفكر الإنساني على هذه الهضبة حين يطالعنا الإصلاح في الدين المزدي ، هذا الدين الذي تحوَّل فيه زردشت ، من بعد ، من مُصلح دينيّ إلى نبي ورسول ...

ولكن ! ..

إلى زردشت قبل أن تلحقه صفة النبوة وصبغة الرسالة نعود فنعود إلى ذلك الكتاب الذي يُعتبر المصدر الوحيد للزردشتية والذي تُكوِّن مجموعته الكاملة الحاوية للنصوص والتعليقات الـ ؛

من هذا الكتاب المقدس المعتبر منزلا هو الـ « يآسنا ومن اليآسنا هذا القسم المكوّن لمجموعة من خمس مجموعات تضم قطع من أناشيد سبعة عشر تُسمى

«جاتها » .

أجل ... إن الزابدا فستا التي كانت تجري بتسطيرها أقلام غابت مصادرها تحت ركام السنين إنما كاليوبانيشادات في مزجها الأناشيد بالدعاء والتاريخ بالسياسة والدين بالسياسة وبالتاريخ إلى جانب فصلين كاملين عن الألوهة فبعضها فقرات عن أسرة زردشت ، وبعضها أقوال إلى زردشت تُنسب ، مما يجعلنا على الـ «يآسنا» فيها نقتصر .. كلا لا نتناول ما على الـ « يآسنا » قد أضيفت من كتابات أخرى فكوّنت «خُرْدان أفستا» أو الأفستا الصغرى العائدة بتاريخها إلى القرنين السابع والسادس ق . م والتي تحتوي الـ « ياشت » أو تسابيح الملائكة حتى إنه لما قد أترع صفحاتها من الحديث عن الملائكة ، يبعث نشر أوراقها في المخيلة صورًا خيالية حتى ليحف بالمخيلة من حفيف أجنحة هذه الصُوَر دويّ الحفيف ...

كلا ... لا نتناول ما على الـ يآسنا » قد أضيفت من كتابات كوّن مجموعها ، ككل ، الزندافستا أو هذه المجموعة التي تكوّنها سُورَ وتكوّن السُور فيها آيات والتي بدأ تحدّرها ، منذ زردشت ، عبر الأجيال كتابًا مُقدَّسًا الكلم فيه وحي والوحي فيه تنزيل ..

ومن ثمّ نطوي العهود المتأخرة في « الزافستا » إلى العهود المتقدّمة فيه ...إلى الـ «يآسنا» نفسها ، وبين هذه الآي الراجع تاريخها ، بدليل لهجاتها وألفاظها اللغويّة ، إلى الألف الأول ق . م العهد الذي كانت

في أحضان هذه العقيدة الثنائية من التفكير الديني طلع زردشت العائد بنسبه إلى أقدم ملوك تاريخ إيران ، وقد انحصر تفكيره في البحث عن ، ماهية الخير وماهية الشرّ ليرى .. أن ، يقينًا ، على الطبيعة يرف هذان المظهران وأن حقًا ، كتعاقب هذا الشفق البشير بالنور وهذا الغسق النذير بالظلمة والذي يكوِّن كلاهما يومًا ، يتكوَّن الكون من خير وشر ...

ولكن ! ... حائرًا لا يقف زردشت بين هذين المظهرين مؤمنًا بتساوى هاتين القوتين وإنما .. إنما على اللوالب العقلية للتفكير الزردشتي تجري أسئلة يجيئها من صافي التفكير منه المقنع من الأجوبة التي هبَّ على إثرها زردشت بها مقتنعًا يهبط من أعالي سبالان إلى فسحات هذه الهضبة ليروح صوته في أرجائها دويا بأن إضفاء صفة الألوهة على الشرِّ وهم باطل وأن « الخير » هو وحده الحق !

من أعماق الطبيعة وطبيعة ما بعد الطبيعة استشفَّ زردشت باطلية الشرّ وأحقيّة الخير استشفافًا اشتد به اقتناعه بأن الخير على الشر في النهاية الغلاب فأتى بفلسفة جهرت تستحثّ الوجدان هجر الأرباب والإقلاع عن العقيدة الثنائية المتخذة محورًا إلهين والاعتراف بألوهة إله واحد هو الإله الخير والحق :

أهورا مزدا ! أيّ البراهين تُقدْمه الزردشتية ، كفلسفة ، إلى وجود إله واحد واتّصافه بالخير والحقّ ؟

سؤالٌ ، لزَرْدَشْت سأله عصره ويسأله الفكرُ ومِنْ شِفاه زرْدَشْت أني لعصره ويأتي للفكر الجواب :

برهان وجود الإله **كواحدُ** مستمد من الحياة نفسها وبرهان صفته **كخيِّر** مستمد أيضًا من نفس هذه الحياة فإن الحياة أحداث ... وهذه

بهذا اليقين المتفجِّر من منبع التفكير الصافى ألقى زردشت دعائم فلسفته التي لم تتَّصف بالثنائية إلا في تفكيرها الطبيعي وأما في تفكيرها الإلهي فقد ميزٌتها عن الدين المزدي صبغة **الوحدانية الخالصة** ! ...

ولكن ... للفلسفة الزردشتية وهي التي ترى أن الشر في الوجود ، وإن يك غير متكافئ والخير ، موجود ، يُجَابه سؤال ؛ إذا كان « الآله الخير » هو وحده المُوجد للوجود أفأوجد «الخيِّر» الشرَّ ؟

بالنفي ، للسؤال الذي تسأله الزردشتية بنفسها لنفسها ، تجيب الزردشتية نفسها بأن: محال على « أهورا مزدا » ، الخيِّر ، إيجاد الشر ! .. محال ؟ !

مازال الفكرُ لزردشت يسأل ؛ من ثمَّ من ذا الذي قد أوجد الشرَّ كشيء لـ « أشا » أو العدالة ولـ « أرتا » أو النظام مُضَاد ؟

مُشكلة دقيقة من المشاكل الفكرية تُجابه بسؤالها زردشت وأمامها يُطرق التفكير الزردشتي ، وهو الذي قد أفرغ أمر الإيجاب الكوني والكائني في إله واحد جعله « آهورا مزدا » بينما بوجود الشّر وإن كان مصيره إلى الفناء هو مُعترف ، ليجري على اللوالِب الفكرية الجواب الذي جاوبه المنطق الزردشتي معلنًا ؛

من المحال على « أهورا مَزْدا»، وهو الخيِّر ، إيجاد الشر فالمنطق السليم ينفي أن «الخيِّر » قد أوجد الشرّ ! بل كيف يوجد الإله الخيِّر شيئًا إلى الغناء مصيره وقد رأينا أن الشر مصيره الفناء ؟

على دعائم هذا المنطق يستمد التفكير الزردشتي تفسيره لظاهرة الشر التي نفى عنها صفة الألوهية وقدرة الخلق فيقول؛

يقينًا إن الشرّ شيء في الطبيعة موجود ومنذ الأزل هو، أزلية الإله،

وهمٌ باطل ألوهة « دروج » فليس هناك إلاّ روح الشر ؛

«انكر مانيو » !

للإله ، أنكر مانيو ، عدوّ لأنه معه دائم الحرب بل سيظل له مُحاربًا على ممر الزمن حتى ينعدم تمامًا في النهاية !

من سُوَر «الجاتها » ، ومن الآي منها التي لا تسجل ولا تحوي إلاّ فكرة خالصة لِمُوجِدْ واحد تتحوّل الزردشتية من فلسفة إلى دين .. دين ، لئن كان قد جاء بصورة عن الشر من القديم ألوانها مستمدة إلا أنه عن الدين القديم ينفصل انفصالا تامًا ففيه ترى « آهورا مزدا » تحيط به جنود لا من الأرباب وإنما من الملائكة ، لا تُعبَد وإنما زُلفى إليه تُتخذ شفعاء ! دين فيه نرى « مزدا » يسمو على الشر الذي يقف دونه في المكانة وينحصر عمله ، بمعونة جنوده من الشياطين ، في إلقاء ظلال وظلل ، كالغَيم ، على كل شيء أوجده ويوجده « مزدا » .!

على صفحات الـ « أفستا » يبرز هذا اللون جليا في التفكير الإلهي الزردشتي وتَتجلّى للزردشتية عقيدة دينية محورها ألوهة إله واحد مُطْلَق عالمي ومجرّد، فصوت زردشت ينبعث عبر سطور الـ « جاتهاياَسنا » للإله يُناجي ؛ « أي آهورا مزدا »

إني لأُدرك أنك أنت وحدك الإله وأنك الأوحد الأحد

وإني من صحة إدراكي هذا أوقن تمام اليقين من يقيني هذا الموقن أنك أنت الإله الأوحد.. اشتدّ يقيني غداة انعطف الفكر مني على نفسي يسألها ؛ من أنت ؟

ولفكري جاوبت نفسي ؛ أنا ؟ .. إني زردشت أنا ! وأنا ؟ . كاره أنا الكراهية القصوى الرذيلة والكذب ، وللعدل والعدالة أنا نَصير !

إنه أنت هو أيها السيد الحكيم فليس هناك إله سواك ؟
أيّ آهورا مزدا !
من ذا الذي أضاء النور وأسْجَف الظُلَم ؟
من ذا الذي نشر وبعث اليقظة وأرخى وأسدَل السُبات ؟
ومن ذا الذي قدّر مراحل اليوم بين فجر وظهر وزوال ، ويتولّى أمر توالي الليل بعد النهار ؟
إنه أنت هو أيها السيد الحكيم فليس هناك إله سواك ! »

الآي ٤٤ من « الجاتها ياسنا »

بهذه المناجاة التي ارتفع بها زردشت ، بنفسه ، إلى الإله للإله يُناجي ولم يدّع أن الإله له قد كلّم وإنما هو الذي كان يُكلّم الإله ، تنحسر في تاريخ حياة زردشت صفحة ساطعة ونقيّة يقف بها في تاريخ التفكير الإنساني صورة مماثلة لـ « عنخ آتن » ، فقد بدّدَ صوته كثافة الماديّات بانطلاقه جهورًا يعلم عالمه بوجود إله عالميّ فرد صَمَد لا شريك له في ألوهيته ولا تحفّ به طائفة من الأرباب لأنّ .. لأن ليس هناك للأرباب وجود !

أجل ... تنزّهت عن الشرك وحدانية « مزدا » تنزّها محا للأرباب وجودًا وهَوَى بها إلى مجرّد وهم ووهم مجرّد ، وعن الاحتجاب وراء أرباب أسفر « مزدا » إلهًا انفرد بمرتبة الألوهية التي تبطل بها بطلانًا تامًا ألوهة « دروج » ... أسفر إلهًا لا يُسمع ولا يُرى ولا يكلّم ولكن ليتجلى على صفحة المخيلة سيدًا محاطًا بحاشية من الأملاك أو الملائكة متفاوتة الرتب والمكانات دحفيف أجنحتها دويّ يملأ الرحاب السماوي.. وبه من كل جانب يحّف ! .

وإلى زردشت تلفَّت التفكير الديني يُرجِّع عنه ترديدًا أي الـ«جاتها» فدوت العالمية الزردشتية في آفاق هذه الهضبة دويًا رجَّعته أصداءً من بعدُ الأجيالُ ليكون السبب الجوهري في لون ذلك التسامح الديني الذي ميز العنصر الإيراني عن غيره من العناصر عندما طلع بفتوحاته الحربية ولم يفرض دينه فرضًا على أصحاب غيره من الأديان ، فلم يضرب جزيْة على أحد وبالسيف على أحد لم يهو ويتخذ حُجةً أنه للزردشتية ، التي يعتبرها الدين الحق ، للدين الحق غير تابع ! .

إلى هذا اللون من التفكير الإلهي الصافي والديني النقيّ حوَّل زردشت هذه الهضبة غداة ، بعد طويل وعميق تأملٍ في قمم « سبالان » ، هبط مهابط بكتريا ، أو « بلخ » ، يُرسل صوته الذي انطلق يُحددً القِيَم الأخلاقية معلنًا:

« إني أشيد بالفكر الطيِّب ، الكلمة الطيِّبة ، العمل الطيِّب ! . »

زردشت

إن صرح القيم الأخلاقية بناء تشيِّده في النفس ثلاثة أركان :

« حُمادا » أو : التفكير الحميد .

« حَقاتا » أو : القول الحق أو الصدق .

« خفازشتا » أو : العمل الطيب أو الخير ..

ولكن !

ثمت سؤال يسأله الفكرُ ، عبر الأجيال ، لزردشت :

كيف يتسنى للإنسان أن يعلم أن الفكرة التي يراها حميدة هي حقًا الحميدة، وأن القول الذي يراه الحق هو حقيقة الحق وأن العمل الذي يراه خيرًا هو حقًا الخير ؟ !

تعاليم ، إلى ناحية عميقة من القلب البشري على هذه الهضبة لجَت وفي سويدائه استقرَت فرددت نبضاته ؛ إنَّ إلى اعتناق الدين الحق يُوجد سبيل يشقّه ويُعبِّده ؛ « **نقاء الفكر والعمل** ! »

زردشت

هذه هي النقطة الدقيقة التي تُمثِّل الإصلاح الزردشتي في الدين المزدي والتي انفصل بها المذهب الزردشتي عن الدين المزدى وتحوّل إلي دينٍ فهي بإبطالها ألوهة « الإله الشرّ » وإحقاقها ألوهة « الإله الخير » وجعلها الدين الحق هو اتباع دين الإله الحق والالتزام بتكاليفه التي تنحصر في مرضاة الإله الخير عن طريق نقاء الفكر والعمل وبذلك جعلت الشريعة قوامها **عمل الخير** قد حوّلت المذهب الزردشتي من إصلاح في دين قديم محوره ألوهة ثنائية موزعة بين إله خير وإله شرٍّ إلى دين جديد محوره ألوهة فردية عالمية مُركَّزة ومُتمركزة في إله واحد هو « الإله الخير» !

وهذه هي النواة الممثلة في هذا المذهب العقيدة الجوهرية التي غرسها زردشت واختار لها في « بلخ» البلاط نفسه تُربة واعتنقها دينًا الملك الذي نعرفه في الشهنامة باسم جُشتَاسْب . وبإعلان جشتاسب اعتناقه لمذهب زردشت دينًا واعترافه بأن هذا الدين إنما هو الدين الحق ، بدأت هذه النواة تنمو في تربة التُّبَّع الأوَل من قبيلة المجوس ...

وبالتُّبَّع من قبيلة المجوس ، الذين أخذوا على عاتقهم التبشير بالزردشتة وساروا في أرجاء هذه الهضبة داعين إلى اعتناق هذا الدين دينًا ، أخذت الزردشتة تمتد في انتشار غامر ولتشتهر ، بسبب اعتناق قبيلة المجوس لها دينًا واضطلاعهم بالتبشير إليها وانتشارها عن طريقهم، باسم المجوسية .

إلى حياة السلم ومانحًا الناس حرية الاختيار في اعتناق مذهبه أو رفضه فهو لم يُقسر أحدًا على اتباع تعاليمه ولا لَوَّح بسيفٍ لأحدٍ تهاوي به على أثره يُجبره الخوف على اعتناق مذهبه وإنما سلك زردشت في دعوته إلى دعوته المسلك المثالي.. الصحيح لكل دعوة صادقة بأن ترك الكَلِم الصادر من القلب يخترق القلب ...

كلا ! لم يُقْسر زردشت قومه على قبول مذهبه ولم يَستّن لهم سياسة السيف شأن الساسة الفاتحين الذين حملوا السيف وادّعوا أن هناك عوامل روحانية قوية تملأ من الجوانب ..

كلا ! .. ما كان زردشت غازيًا اتخّذ الدين وسيلة للغزو ولا حصر أطماعه ملك ولاحدٌ أُفقه حكم دنيوي اتخذ إليه الدعوة بالرسالة الإلهية أداة فقد هبَّ ناهيًا عن الغزو وعن مذهبه أخذ يُجادل بما أوتيه من ملكة الإقناع تدفعه عوامل روحانية صادقة تملأ منه الجوانب إلى الاضطلاع بنشر دعوته تعاليم يترك أمر قبولها أو رفضها أمرًا اختياريًا بين الناس شأن دُعاة الإصلاح الصادقين في دعواهم وشأن الروحانيين الذين تملأ العوامل الروحانية القوية منهم الجوانب ...

كلا ! على قومه من الإيرانيين لم يهو بالسيف زردشت يجبرهم على اعتناق دعوته دينًا والاعتراف له صاغرين بالرسالة الإلهية ! كلا ولا بالسيف هَوَى على أعداء بلاده من التُورانيين هؤلاء الذين نهاهم عن الغزو ومن بيدهم هَوَى ، نفسه ، شهيدًا !

أجل .. على مذبح الدعوة الصادقة هَوَى زردشت شهيدًا بيدٍ تُورانية طعنته من الخلف في اللحظة التي كان فيها غارقًا يتعبَّد « الخير » ويسأله ، « يا مزدا ! متى تشرق شمس انتصار الخير على العالم ؟ ! »

يقينًا أن المرء الذي يعمل الخير ويتجنَّب ويُقاوم الشرّ هو المؤمن ، ولكنه ليس بكامل الإيمان فإن من يرى الشرَّ ويسكت عنه اكتفاءً بأنه هو خَيِّر بنفسه فهذا آثم وإثمه لا يقل عن إثم نفس من قد ارتكب الشر ذاته!..
إن على الإنسان أن يؤدي صدقتين ؛ الصدقة العملية والصدقة العلمية ... على الإنسان أن يؤدي الصدقة العملية فإن ، « من يُعاون الفقير البائس يسهم في إقامة دولة آهورا مزدا »

زردشت

«إن الذي لا يجود بماله مع ما أوتي من سعة الرزق سوف يساق إلى هاوية الفقر! سوقًا ولتنصبّ المصائب انصبابًا على الأشحاء الذين لا يتصدقون!»

زردشت

وعلى الإنسان أن يؤدي الصدقة العلمية فإن ؛ الصدقة إنما كلمة لا تقتصر على الحاجة المادية لدى المعوزين وإنما الصدقة العلمية تجب للجهلاء على أهل المعرفة لتسد الحاجة العقلية والروحية !

إن خير خدمة يؤديها المؤمن للمجتمع ليست في أن يؤمن بوحدانية الإله الخير فحسب وأن يكون مؤمنًا بذاته خيِّرا ومستقيمًا ولكن هي أن يُقوِّم عن طريق التعليم انحراف أفراد المجتمع الذين حادوا عن الخلق الطيِّب حتى يزول من نفس الأفراد الجهل وتذوب في اضمحلالٍ من هذه النفس شهوة الشهوات..

أجل ... لنشر الهداية بين الناس كان زردشت قد اتخذ « المعرفة» وسيلة وأوصى كل فرد من أهل المعرفة أن يكون طبيبًا للنفس ، ولذا فرّق بين طبيب الجسد وطبيب النفس ولذا قارن بين مرض الجسد وبين مرض

إنه البيت الذي تتناسل فيه الماشية ويكثر فيه غذاء الحيوان ويكون الكلب فيه سعيداً ! »

صورة قريرة للبيت المستقر الهانئ والسعيد . راحت شفاه المبشرين تطبعها على قماش كل مخيلة وتستثير بها الحنين في كل قلب إلى المكان الذي تبلغ فيه الدنيا أقصى سعادتها حتى تستقر الأسرة ويستقرّ باستقرارها هذا الوطن ، فإن إلى العناية بالأسرة امتد الإصلاح الزردشتي في رحمة شملت العناية بالحيوانات النافعة ومن علامات هذه الرحمة أن نرى أن للطب البيطرى في الـ « أفستا » نصيبا كبيرا ...

أجل ... إلى سائر طبقات المجتمع اتجه صوت المبشرين مُعلّما شريعة تنحصر في الفضيلة ، اتجاهه إلى كل فرد من أفراد هذا المجتمع له يُعلّم ؛ إن شريعة مزدا شريعة يسرة غير عَسرة فهي شريعة لا تكلفك بمادي التكاليف ولا تطلب منك تقدمات ولا محرقات ولا قرابين ... لا تطلب منك إلا **نفسك** ! ... ولا تطلب من نفسك إلا نقاء الفكر والعمل !

إن **نقاء الفكر والعمل** خير تقدمة تقدّمها « للخير » وإشعال النفس منك بلهب الحبُّ الإلهي خير محرّقة تستطيع أن ترفعها إلى الإله الخير !

كلا ! .. لا تكلفك شريعة « مزدا » بتكاليف مادية فلا تفرض عليك طقوسا ولا تلزمك بشعائر تؤديها وأنت من « نقاء الفكر والعمل » خالي الوفاض ، بل إن « شريعة مزدا » تلقي عن كاهلك ثقل وأثقال هذه التكاليف ومما قد قيدك به الدين القديم تفك عنك هذه القيود لتربط بينك وبين « الخير » برباط الخير ، فلا تطلب منك ولا تكلفك ولا تلزمك إلا بشيء واحد هو ؛ أن تشعل نور الخير في داخلك !

النفس طبيبًا إنما كان أيضًا لعلل الجسد طبيبًا فنفسه كان زردشت طبيبًا وإلى طب الجسد امتد إصلاحه وشريعته تنص على الشروط التي ينبغي أن تتوفَّر في طبيب الجسد فهي تنص على أن على طبيب الجسد أن يعرف تشريح أعضاء الجسم وألا يزاول العلاج إلا بعد معرفة تامة بأنواع الأدوية وأسماء الأعشاب المختلفة وخصائصها وأن يُحرم من ممارسة الطب إذا عالج ثلاثة أشخاص فماتوا !

لا غرو من ثمَّ أن يكون للطب الزردشتي أثر كبير في ازدهار علوم الطب في إيران واشتهار هذه الهضبة بهذا النوع من العلم وأن يمتد هذا التاريخ على مدى الزمن حتى كانت مدرسة جند يَسابور من أهم مدارس الطب قبل الإسلام وظلت كذلك إلى القرون الإسلامية الأولى ..

أجل ... إلى سائر طبقات المجتمع وإلى فرد في هذه الأسرة العالمية الكبرى اتَّجه الصوت الزردشتى من خلال أفواه المبشرين يعلِّم شريعة عملية تنحصر مبادئها في الائتمار بمكارم الأخلاق وليتجه هذا الصوت من أفواه المبشرين إلى هذه المجموعة الكبيرة التى يتألف منها غالبية الشعب يدعوها إلى وضع دعائم الأسرة على أسس قوية من قواعد الأخلاق ويضع بينه وبين الفراغ سدودًا ويحول بينها وما يتأتى عن الفراغ من شرور لذلك فهو يحثها على السعي والعمل ، ولما كان أهم عمل هذه الطبقة ، طبقة الحراثين ، هو الزراعة فإن إلى الزراعة نظر زردشت على أنها العامل الأول لنهضة الأمة لأنها توفِّر للأمة قوتها.. وتقيها ، في سنين الجفاف ، شر القحط والقحط ؟ القحط باعث على إثارة شهوات الغزو في النفس وباعث على الحروب ومن ثم كانت الزراعة عامة من أهم النواحي التي دعا زردشت أتباعه إلى النهوض بها مناديًا ؛

الروحية الصادقة الدعوة فهي.. رسالة لم تنشر دينها وشريعتها وتعاليمها إلا عن طريق **المعرفة** وبوسيلة **التعليم** وهذا ما يُميِّز الدعوات الروحية فليست الدعوات الروحية في حاجة إلى سيف واستعباد وإذلال الأعناق فإنما هذا شأن الدعوات السياسية ذات الأطماع الدنيوية والأهداف الاستعمارية وليست هذه المقارنة بحاجة إلى إثبات صحتها بل وفي غير حاجة هي إلى مناقشة أو دليل وإلا فما حاجة الدعوات الروحية إلى نشر تعاليمها عن طريق القتال وكلمة الروحية إنمًا بما تحمله من مدلول تُجافي الوسائل التي تتخذها الدعوات السياسية !

الشأن ، كان شأن الدعوات الروحية في مختلف بقاع العالم قبل وبَعْد هذه الدعوة التي عملت على النحو الجديد بالرسالات الروحية الصادقة فلم تحارب الغزو بالغزو ولم تقاتل القتل بالقتل وإنما تغلغلت من خلال التعليم إلى تربة النفس واتخذت الخير درءًا ودرعًا وشيَّدت صرح الاستقامة والفضيلة في الأسرة الكبرى عن طريق الأسرات الصغيرة وفي الأسرات الصغيرة عن طريق الأفراد بأن حثتهم بأن يعملوا لدنياهم وأخرتهم وعلمتهم شريعة عملية روحية لدين عملي روحي قاد شعب هذه الهضبة ، من خلال التعليم ، إلى الاتجاه بسلوكه إلى مرضاة إله واحد عالمي صفته الخيرية وماهيته نور على نور .

ومن ثمٌ فإذا ما دوَت أرجاء هذه الهضبة بأن الإله الخيِّر قد بَعَث زردشت من لدنه رسولاً بشيرًا بالدين الحق فليس إلاً ليقوم في أرجاء كل قلب الصرح الأخلاقي الزردشتي وليس إلا لتقوم قويمة بين الضلوع لهذا الدين شريعة مبادئها تعاليم تُلقيها ، في ترديدٍ ، شفة إلى شفة تقول :

بَيْدَ أنَّ عند هذه النقطة ، القائلة بحرية الاختيار التي لا يكل بها زردشت أمر الهداية والضلال إلى الإله تارة وتارة إلى مشيئة الإنسان وإنما يلتزم مبدأ واحدًا يقول بحرية الاختيار وينفي نفيًا قاطعا فكرة التواكل فلا تواكل عند زردشت وإنما حرية الاختيار ونتائجها جزاء أو قصاص ، هنا وفيما بعد ، يلج بنا التفكيرُ إلى ؛

مشكلة الثواب والعقاب في الدين الزردشتي

إن الإنسان كأي مخلوق من « الخيِّر » ومن ثمَّ فاتجاهه بفطرته نحو الخير وابتعاده بهذه الفطرة عن الشر ، ولكن « الباري » قد ترك للمرء حرية الاختيار ، فمن القوة والإرادة قد منح « مزدا » الإنسان مالإرادته نفسها يكاد يكون مساويًا ليكفل له كامل الحرية في اختيار أى المصير لنفسه أراد، وليس على ذلك من دليل أدلّ من هذه الآية المنادية؛

« يا أيها الناس ؛ أمامكم طريقان ... تأملوا بذهن صاف هذين الطريقين وفيهما بوضوح انظروا حتى تختاروا أحدهما ... إن مصير كل واحد منكم يتكوَّن تبعًا لهذا الاختيار!»

زردشت الآية الثلاثون « ١ – يآسنا »

يا أيها الناس ؛ إن حياتكم على الأرض ، مهما طالت هنا ، مصيرها إلى « هناك » .. إلى رحاب خالقكم « الخير » ستعودون ، وعلى اختياركم أحد الطريقين ستحاسبون حسابًا تحتمه العدالة الإلهية ، فإما تجازون وإما تُعاقبون، من ثمَّ فاعلموا أن ؛

« بين الخير والشرّ قد فرَّق الحكماء بيْد أن كثيرًا من الناس قد أساءوا بينهما الاختيار فتنبَّهوا ! ... في نهاية الأشياء سيكون أردأ أنواع

مخلوق ثنائي التكوين في كائن واحد إنما الإنسان ، فمن هاتين الصورتين ، الصورة الجوهرية والصورة المادية ، يتكوّن الإنسان وليس هناك من دليلٍ أدلّ على أن الإنسان يتكوّن من هاتين الصورتين وأنه مخلوق ثنائي في كائن واحد من أنه يعمل بروحه في العالم اللامادي غير المرئي ، ويعمل بحواسه في عالم المادة المرئي ومن أن كلا العملين مصدرهما كائن واحد هو الإنسان وتجمعهما أداة واحدة هي العقل مصدرها ومحركها إنما النفس !

بهذا التكوين الثنائي يحيا الكائن الحي على الأرض .. يعيش بجسد مادي حفت به للغرائز فانى ملذات وبروح طبيعتها للعقل خالد اللذّات وهو بين هذين العاملين ، عامل الغريزة وعامل العقل ، في جهادٍ فإن له في اتباع أي العاملين حرّية الاختيار ..

ولكن ! كل ما يأتي به الإنسان من عملٍ وكل ما يجول في تفكيره من فِكَر فعليه يُحصى في ؛

« كتاب الحياة »

إن على الإنسان مُوكلة من الملائكة « حفَظَة » تحصي عليه السيئات وتحسب له الحسنات وتسطرها في هذا « الكتاب » الذي سيجده الإنسان أمامه منشورًا ؛

« يوم البعث»

سيجد الإنسان أعماله وفِكَره مُسجلّة ، عليه وله ، في هذا الكتاب الذي جرَت بتسطيره أقلام «الحفظة » من الملائكة التي تحصي أعماله وفِكَره في هذه الحياة حتى تنتهي به مراحل العمر إلى النهاية الطبيعية لكلّ كائن حيّ ... حتى ، بالموت ، تنفصل الروح عن الجسم لتنطلق غير

حينذاك سيدرك الإنسان أنه لم يُترك سُدى وإنما عليه أُحصيت أعماله وإن عليها في هذا اليوم ، يوم الحساب ، سَيُحاسَبْ حساباً عدلاً:..

كلا ! .. ليس هناك اعتراف سلبي كما في مصر ، ولا اعتراف إيجابي كما عند الكلدان، ولا ثواب وعقاب صيروري كما في الهند ، وإنما... إنما، وهناك ملائكة به مُوكَّلة عليه كانت تُحصي سيئاته وحسناته وتسجلها له وعليه في كتاب ، سيؤتى بهذا « الكتاب » عند « الحساب » فتوضع في أحد كفتى « الميزان » الحسنات وفي الأخرى السيئات ... وتوزن الأعمال من خير وشر ، وبناء على هبوط كفة وصعود كفة أو تساوي كفةً بكفةً يصدر الحكم ويكون المصير !

كلا ! كلا ، لا شفاعة يومذاك تُرجي ، كلا ولا غفران يُرجي يومذاك فيما لا غفران إلاّ كلمة جوفاء جافّة المعنى وما الرحمة إلا وجه لسليم العدالة غير سليم ولصحيح العدالة غير صحيح فإنما على قوائم العدل يقوم الحساب ، وعلى **أسس العدالة** تصدر الأحكام ! .. ولهذا ستُحاسب، بدقة ، دقيق الأعمال ليلقى المرء جزاء عدلا على كل ما قد أتى من أعمال وليحكم عليه طبقًا لموازينها خفت أم ثقلت ! ليتلو هذا الأمر بالمرور فوق الصراط ...

والصراط؟

الصراطُ إنما مدٌ فوق هاوية الجحيم .. هاوية قرارها الظلمة من فوقها تندلع لهب ،

النار!

ولكن ... لئن كان الصراط مدًا فوق هاوية « الجحيم » فإنما هو

يوم القيامة

ويوم القيـامة ؟ ... يوم القيـامة إنمـا .اليوم الذي ستـقـوم فيـه من مضاجعها الأجسام فاليوم إنما ؛

يوم البعث ! إن يوم البعث إنما يوم فيـه سيـرد « مـزدا » إلى الأرواح حياتها الأولى ... يوم ، يبعث فيـه « مزدا » الأجسـام الفانيـة جميعًا ويُحْيي فيه العظام التي كانت قد تحولت رميمًا ! .. يوم ، فيـه سيعود الجسد وتعود الروح إلى تلك الصـورة أو القالب الذي كان قد لحقه الفناء ! إن يوم البعث إنما اليوم الذي تُحشر فيه جميعًا الأجساد فهو ؛

يوم الحشر !

في « يوم الحشر » سيكون الحسـاب الأخير وسيكون أهل المعرفة أكثر الناس مسئولية وسؤالاً . فإن المعلم مسئول « يوم الحشر » عن إهماله في إرشاد من قد أجرم وعن الصراط السويّ كان قد انحرف ؛

« ولسوف يرى كل امرئٍ أعماله ، حسنة أو قبيحة ، ولسوف يتميَّز المجرم يوم الحشر ويبقى ظاهرًا ظهور النعجة البيضاء وسط النعاج السـود ! .. ويعتب المجرم حينذاك على خلانه الذين عملوا صالحًا في دنياهم وكان لهم من المعرفة نصيب ولم يأبهوا بهدايته وتقويم خلقه ويقول له ؛ لماذا نسيتموني ؟ لماذا تركتموني ولم تعلموني طريق الفضائل ؟ !

وعندئذ يترك خلانه الأخيار مكانهم في الجمع وقد علاهم الخجل وقد ختم الله على قلوبهم وألسنتهم لما فرطوا من حق إرشاد صاحبهم ! »

زردشت

يقينًا إن هذا «اليوم» يوم عسـير ففي هـذا «اليوم » ، يوم القيـامة

يرقى على الأرض و « الجـاتهـا » إذ تجـعل زردشت نبـيًا أرسله الإله بشيراً بالخير للناس هاديًا وبيوم الحساب نذيرًا ، فإنها تجعله لا فحسب بين الأنبياء وبين الرسل رسولاً وإنما تجعله نبيًا ورسولاً جاء في آخر الزمان ومن ثمَّ طلعت بهذا النداء على دنيا الدين لأول مرة :

عقيدة نبي ورسول آخر الزمان

عن نفسه في « الجاتها » قيل إنَّ زردشت قال :

« أيها الناس : إنني رسول اللّه إليكم ... لهدايتكم بعثني الإله في آخر الزمان ... أراد أن يختتم بي هذه الحياةَ الدنيا فجئت إلى الحقِّ هاديًا ولأزيل ما قد علق بالدين من أوشاب ... بشيرًا ونذيرًا بهذه النهاية المقتربة جئت ، ولهذا يدفعني اللّه في حماسة إلى تأدية الرسالة بأسرع ما يُستطاع ويأمرني بالصدوع لأمره ! »

من هذا القول ، الذي قيل عن زردشت إنه عن نفسه له قد قال ، استمد المبشرون مادة هذا النداء الذي ألقوه تخويفًا للناس وتحذيرًا والذي بدوره عقد في النفس الجماعية عقيدة كل الجدة جديدة كما في طوايا الطوية البشريَّة غرَسَ المبشِّرون ، بزردشت هذه العقيدة ...

أجل ...

صفحات الـ « جاتها » سِجل هذه العقيدة ... عقيدة نبي هو « خاتم الأنبياء » ورسول هو « رسول آخر الزمان » !

عقيدة ! ...

عقيدة عُقدت بين الجوانب وفي تشبث تشبثت بها المخيِّلة الجماعية ليزيدها بها تشبثًا لا فحسب صفة الرسالة الإلهية التي صبَغ بها

اتّخذ برهانًا على نبوة زردشت وعلامة من علائم «رسالته الإلهية» التي اختصهُ بها اللّه دون سائر الناس ، حتى أمست هذه العقيدة بمثابة حجر الأساس في صرح هذا الدين !

من مُحدّدٍ للقيِّم الأخلاقية وداعية لخالص التوحيد ومن المطالب بإيمان أقوى بالخير انقلب زردشت إلى نبى ورسول كما بهذه المعاني الصريحة تأتي النصوص في قسم « الجاتها » التي بها تطالعنا ؛

النبوة والرسالة الزردشتية والوحي المنزل

عن هذه النبوة والرسالة والوحي المنزل ينبعث من قسم « الجاتها » الحديث الفقهي وهو عن هذا النبي الرسول يُحدِّث ؛

إنَّ إلى التفكير والعزلة انقطع زردشت منذ درجت به مدارج الحداثة من الصبا إلى الشباب وحتى تخطّت به مراحل الشباب للشباب فجرا وللشباب غروبا.. وعن الحقيقة باحثًا راح يطوي.. طيّات الصحراء تهجدًا ... ومتجهدا طواه غار بعد غار في جبل سبالان حيث بدأت أولى بشائر نبوته ورسالته حوالي سن الأربعين من العمر ، بالرؤيا ... ثمَّ بالكلام ... ثمَّ بالإسراء أو المعراج إلى السماء !

هذه هي المعتقدات الجوهرية المكونة للدين الزردشتي ...

وبهذه المعتقدات المكّونة للدين الزردشتي راحت بالتبشير سيول المبشرين والعهود السياسية على هذه الهضبة تُطوِّف بحلقاتها حتى عهد الكَبَانيين [1] ، العهد الذي شهد العالم بـ « دارا» ، داريوس الأول ٥٣٢ – ٤٨٦ ق . م ، أول إمبراطورية آرية وأعظم إمبراطورية عرفتها سجلات التاريخ السياسي ليشهد العالم ؛

الإعلان مُسجِّلا وفي معرض التاريخ منتشرًا تعلن نصوصه ، باللغات الثلاث المتداولة في هذه الإمبراطورية ، ألوهة إله عالمي أرسل زردشت إلى الناس كافة هاديًا إلى دينه الحق الدين الرسمي لهذه الإمبراطورية الطاوي ظلها إمبراطوريات الشرق القديم والواصلة أطرافها النيل بالداردنيل ...

لا غَرْوَ من ثمَّ أن نرى أن في هذه الإمبراطورية قد برز بداريوس الأول لون من التسامح الديني عجيب مرده إلى الفلسفة الزردشتية في تفكيرها الإلهي القائل بأن من جوهر الفكرة الإلهية لن تنال ، بتغير الأمم واللغات ، مُتغير أسماء فهو إله واحد لكل العالم ، ولكل أمة أن تناديه تحت اسم له شادت لغتها من الأسماء !

ولا غَرْوَ من ثمَّ أن نرى أيضًا أن ، بوحي عقيدة تقول بلا تأر التوحيد أو الألوهة بأي اسم بها تُنعت وسواء أكان اسم الإله العالمي «مزدا» أم « رع » أم « آمن» أم « فتاح » أم «إيل» أم مردوق » فكلها أسماء مختلفة لمعنى ولحقيقة واحدة ، قد تجلَّى التسامح الديني واتخذ مظهره بسيد هذه الإمبراطورية فإلى الإله الأوحد يتجه داريوس في مصر ليرى في صورة «فتاح» صورة أخرى لمزدا فيصلح معبدًا لـ « فتاح » – وإلى الإله الأوحد في صورة « آمن » يتِّجه فيأمر بأن يُنحت على الجدران من قدس الأقداس في ذلك المعبد في واحة الخارجة » نشيدًا لآمن وإلى مزدا في صورة « رع » يتجه فتحتفظ لنا الجدران بلحظة هذا الاتجاه فعليها مازال بالهيروغليفية محفورًا إن داريوس قد أضفى على نفسه نعتًا « ابن رع » ...

إلى الإله الواحد تحت أسماء مختلفة اتجه الفكرُ الآري خارج هذه

الشمسي القديم ، فإن ودونما جدوى كانت محاولة كسرى قمع الثورة الدينية وإحباطها عن طريق الشدة ، كان من الطبيعي أن يهب الكهنوت المجوسيّ ، متعهدو الدين الزردشتي ، لصد هذا التيار وأن يضطلع بإخماد هذه الثورة بما لديه من وسائل ... وسائل لم تكن إلا بدعًا مستمدة من أصول الدين الاشراكي القديم وإن اتخذت محورًا نفس زردشت !

للحيلولة بين تيار الميتهرية والتوّغل إلى القلوب اتخذ اللأهوت الزردشتي من العقيدة القديمة أصولا هي التي بها يطالعنا انحراف التعاليم الزردشتية إلى ذلك المجرى الذي فقدت فيه تلك الموازنة الدقيقة بين الثنائية الفلسفية والثنائية اللاهوتية والذي فيه اصطبغت بصبغة الثنائية اللّاهوتية التي بدأت تلقي ظللها على التعاليم الزردشتية الأصيلة وتحجب ذلك التوحيد الخالص النقي حتي تمّ احتجاب هذا التوحيد النقي تمامًا والأيام بالعهد الكسروي ترتحل ومن كسرى إلى « أرتاكسركس الثاني » تسير لتسجِّل ؛

تحوُل الزردشتية إلى مذهب في المزدية

في الفترة الزمنية التي كونتها الأيام التي سارت فطوت لكسرى عهدًا ونشرت لأرتاكسركس الثاني عهدًا ، يطالعنا ، سنة ٤٠٤ ق . م ، تحوُّل الدين الزردشتي وانصبابه في الدين المزدي واعتكار الوحدانية الصافية في الزردشتية بغيوم الاعتكار !

أجل ...

إن الوحدانية مازالت صفة الإله الواحد الذي يعرفه هذا الدين تحت اسم «آهورا مزدا » ويعرّفه برب العرش وبرب العالمين ومنه يقف

«أمـــشـــا بانداس» و «يازاســـتـــا» الكائنات النورية أو الملائكة وبأهريمان ، النار ، تحيط ؛

« ديفو » الكائنات النارية أو الشياطين وكلاهما ، مزدا وأهريمان ، يقف بجنوده المؤلّفة من الملائكة والشياطين ، لتؤلِّف هذه الجنود ؛

« حزب الإله » و « حزب الشيطان » !

منذ خلق اللّه الوجـــود وأجـــرى عليـــه الزمن والصلة بين هذين الحزبين ، حزب الإله ، أو حزب الخير، وحزب الشيطان أو الشر صلة نضال بدأ منذ خلق الإله الخيِّرُ على هذه الساحة ؛ « **الإنسان** » ! .

الإنسان موضوع النزاع بين الحزبين فإنّ إلى الإنسان ، مخلوق مزدا الذي لم يخلقه خالقه عبثًا فهو يهديه بواسطة أعوان من الملائكة إلى الطريق المستقيم ممن يوحون إليه الطيِّب من القول ويرشدونه إلى الخير من العمل ، يسرع بأعوانه الشيطان وغايته الانحراف بالإنسان عن الطريق المستقيم فيحول بين الخالق والمخلوق مستعينًا بأعوانه الذين يتولون قذف خبيث الإيحاء وضار الإيعاز بالوسوسة في صدور الناس !..

وللإنسان سيظل يتنازع هذا النزاع بين الفريقين ، أحدهما يحثّ على الخير والآخر يحض على الشر ، حتى « يوم البعث » ! .. حتى ينصب « الميزان » ويمتد « الصراط » فوق «هاوية الجحيم» منتهيًا إلى «الفردوس » ! . حتى تتمّ للإله الغلبة على الشيطان ويتحقّق السلام العام !

هذه هي الثنائية اللاهوتية التي أفقد بها الفقه المزدي الدين الزردشتي تلك الموازنة الدقيقة بين الثنائية الفلسفية والثنائية اللاهوتية والتي انفصلت بها الزردشتية إلى قديمة ومتأخرة .. ففي زردشتية

الألوهة بالعنصرية والجسمية وحدتها بحدود المكان بل في تمادٍ جنحت هذه المخيلة فظللتها بظلال الإشراك !

صورة ، إليها نطوى طيّات الماضي فتنتشر السماء لوحة عليها ترتسم مملكة ، الجوهر والدرّ والذهب لها حصباء ، والإله على عرش فيها مستو ومن حوله تسبح في تسبيح بحمده ملائكة متفاوتة الرتب والمكانات، لكل مهمة يقوم بها ولكل منزلة يشغلها ، ويرسل منها إلى الأرض من أراد له إرسالا لهداية البشر وإن وقف زردشت من بين البشر مختارًا فقد اختصهُ اللّه بالرسالة وإليه ، ليعلمه الشريعة التي ضمّها من بعد الكتاب العزيز ، أرسل الكبير من الملائكة رسولا إلى السماء به عرج وإليه به أسرى !

وبعيدًا عن هذا العدد الوفير من الملائكة ، الحزب الأعلى من الكائنات النورية ، يقف العدد الوفير من الجان ، الحزب الأدنى ، من الكائنات النارية، حزب « أنكر » روح الشر الذي قد غدا في هذا الدين « أهريمان » وأضحى ينعت « ديفو » أو الشيطان ، وتُؤلف هذا الحزب أرواح الشرّ من الشياطين ، أيضًا متفاوتة الرتب والمكانات وكل واحد منها موكّل برذيلة من الرذائل ، عليه أن يُنميها وينشرها ، وكل يجمع فيما بينها هدف واحد هو إضعاف حزب مزدا عن طريق اجتذاب الإنسان إليها ووسيلة هذا الاجتذاب تنحصر في الوسوسة في الصدر والسعي بالإنسان عن طريقها إلى ضلال بعد ضلال .

ولهذين الحزبين مسكن عيّن الفقه المزدي بما فوق السماء وما تحت الأرض أما المكان ففي الشر ، في ضوء الشفق - وفي الغرب في ظلمات الغسق - وأما ساحة النضال بين الحزبين فهذا العالم .. وأما أداة هذا النضال فإنه الإنسان !

النوع البشري ونشر الخصوبة والعمران فهذا ركن من أركان الاعتراف، برسالة تقوم على أساسين ؛

الإيمان بالوحي الهابط والاعتراف بالمعراج إلى السماء

كحجر أساس لهذين المعتقدين يتحدّ الدين المزدي الزردشتي ؛

قصة **مولد زردشت** من الينبوع الأسطوري استمدت المخيلة الفقهية مددًا انفرجت به شفاهها تحدِّث ، لنسمع ؛

إن بزردشت حملت « دغدافا » وهي في سن الخامسة عشرة ، **بطريقة إعجازية** . وعلامة لها على حملها بهذا الرسول الكريم صاحبت المُعْجزات الشتى ، التي رآها الخاصة والعامة ، ليلة مولد هذا النبي الرسول الذي وُلدَ ضاحكًا رافعًا وجهه إلى السماء وبيديه مشيرًا إلى هذا الملكوت الأعلى الذي قد ابتهج لهذا الميلاد وتهللت فيه الملائكة فرحًا !

وتسترسل الشفاه الفقهية تُحدِّث ؛ واهتزَّ « دوراسان » كبير سحرة إيران ، فزعًا لأنه علم أن قد وُلد من سيبطل السِحْر ويحق الحق وبَعَث بثلاثة من أتباعه يحاولون قتل الوليد بَيْد أن ردَّ الله عن « نبيه » كيدهم . . بل لقد حاول أحد الأمراء التُورانيين قتل زردشت طفلا بيد أن زردشت سلم أيضًا وعلى مدارج الحداثة درج حتى شارف من العمر مشارف الأربعين ليبدأ في هذه المرحلة حياة التهجد الجديّ .. ومتهجدًا ذهب « ذهب الصحراء » إلى الجبل .. إلى حيث اعتكف عن الناس عاكفًا على مناجاة الإله بالقلب وباللسان طالبًا الهدى حتى أجيب فنزل عليه بأمر الله كبير الملائكة ؛

مَنْ استطاع قتله من الأشراف وأما من بقي ففرّق كلمتهم ، عملا بالنصح الأرسطي له « فرّق تسد » ، بأن قطع إيران بينهم تقطيعًا ومنح كل شريف قطعة وأقامه عليها ملكًا لأن كل شريف وقد غدا ملكًا سيحرص على ملكه بالتقرب من الإسكندر وقط لن يُفكِّر في لم شمل الوطن الممزق لأن هذا يفقده عرشه وماله من مظهر الجاه ، وبهذا حطَّم الإسكندر الوحدة السياسية للبلاد ثم تحوّل مُحطمًا الوحدة الدينية فانعطف نحو القوة الروحية في الشعب محاولاً القضاء عليها بأن جَمَع « الأفستا » كتاب الدين ، فحرقه ! ثم إلى المعاقل الفقهية تحوّل الإسكندر وبعد إحراق الكتاب المقدس شتَّت رجال هذا الدين تشتيتا بأن صب عليهم من ألوان العذاب ما حال دونهم والاسترسال في التبشير بدينهم ...وتمَّ للإسكندر ما أراد وظلت هذه الهضبة مفقودة الوحدة السياسية مفتقدة الوحدة الدينية لأكثر من خمسة قرون من الزمن ...

ولكن .. القلب الإيراني لزردشت لم يجف وله لم ينس إن كان هذا الحبُّ قد ظلَّ بين الضلوع مطويًا والأيام في مجرى الزمن تسير وتتحوّل من عهد إلى عهد ليبدأ هذا الحبُّ في التجلي من جديد غداة تلاشت دولة الإسكندر وبدأ عن هذه الهضبة ينجلي ظلال الاستعمار المقدوني .. بدأ الوسن الاستعماري يفارق الجفن الإيراني فبدأت الأمة ذات التاريخ القديم تستعيد قديم الذكرى وتفكِّر جديًا في استعادة ماضيها .. ومن ثمَّ بدأت الدعوة إلى الوحدة السياسية من جديد وبدأ العمل جدِّيا على إلغاء هذه العروش الزائفة التي مزّق بها الإسكندر البلاد ليسودها جمعًا وليسود أشرافها جميعا !

ولكن ! ..

الوحدة السياسية لن تُبلغ إلاّ عن طريق لم الشعث المشتّت لهذا الدين القديم، دين زردشت .. ومن ثمَّ تطالعنا في غضون هذه المرحلة

بتعاليمه التي اتخذت العلم أساسًا لكل معرفة .. ومن ثمَّ ، والعلم أُسس الدين الزردشتي ، بدأت الدولة في إقامة المدارس ومن أشهرها (مدرسة «جنديسابور») تلك التي راحت تُعلِّم وتنفث في أرجاء الدنيا ، حتى القلب من شبه الجزيرة العربية ، روح الدين المزدي الزردشتي ...

ولكن ! ..

لئن كان من ثنايا القِدَم قد هبّ زردشت وحكم بتعاليمه أرجاء العصر الساساني وراحت هذه التعاليم تنير آراء هذه الهضبة من جديد وتنساب برقا بريقًا في آفاق دنيا العصر فليس إلا لتهب ، كأثر لما قد ألحقه به الأتباع الأول ،عنه الذكريات تذكره نبيًا رسولا جاء في زمن زمنه يوم البعث ... وفي تنبهٍ تذكر أن يوم البعث إنَّما آخر الزمان ! ..

آخر الزمان ؟ !

سؤالٌ طوّف في الأرجاء الفكرية للعصر ما لبث أن انبعث همسًا وما لبث أن تردَّد دويًا فإن الزمن قد انحسر إلى قرون طُويت ما بين مصرع زردشت ، الذي جاء في « الجاتها » أن نهاية العالم بنهايته موقوتة ، والآن ! .. الآن ، والزمن يقترب من القرن الرابع ب . م ، يتلفّت التفكير الفقهي ليرى أن لا فحسب أن منه الانتباه قد تنبّه إلى هذه المشكلة وإنما ممن حوله من أصحاب المذاهب الأخرى يجيئه التذكير بأن العالم بعد زردشت طويلا قد سار وطويلا قد يسير !

واستدارت الدوائر الفقهية على نفسها حيرى وراحت فيما بينها تتهامس أمام حقيقة لا تقبل الشكّ ولكنها تُعرِّض للهوِّى نبوة زردشت !

إذا هوت نبوة زردشت هَوَى الدين المزدي وإذا هَوَى الدين المزدي هَوَى صرح الدولة !

إن زردشت قد وُلد في نهاية الألف التاسع من سنة الخلق وبدء الألف العاشر ومن ثمَّ فإن الزمن منذ رواح زردشت في راحة الزمن حتى يوم البعث لن يتجاوز ألفيَ عام ! إن على النهاية مازال ألفان من السنين ، لن ينتهي الألف الثالث على رواح زردشت إلا ويكون « يوم البعث » !

تحت هذا المعنى وحده جاء في الكتاب المقدّس النصّ بأن يوم البعث مرهون بنهاية حياة زردشت على الأرض وهذا هو التفسير الصحيح لما قد أشكل على الناس من أمر الآي ! .. أفشكٌ بعد ذلك في عصمة الآي ؟ !

التقسيم... قسَّم فقهاء الدين الزردشتي العالم إلى هذه الأدوار فجاء تفسيرهم أو بالأحرى تأويلهم للآي « منطقيًا » حَصَّن حصن النبوة الزردشتية ، ثم انعطفوا يُسيِّجون هذا الحصن بسياج المنعة فابتدعوا بدعة جديدة استطاعوا بها أن يلقوا ظللا على التصريح الجازم بأن نهاية العالم موقوتة بنهاية زردشت ، هي تلك التي طلعت بها على دنيا الدين ،

عقيدة المخلص والمهدي المنتظر

للتخلُّص ممَّا قد يأتي به الغد من إشكال أعلن فقهاء الدين المزدي؛

إن الفكرة التي علقت بالذهن عن موت زردشت خاطئة لأن زردشت لم يمت ! لم يمت إلا في الظاهر وإنما هو فحي ! .. أمَّا إذا سأل أحدٌ ؛ أين ؟ ! فالجواب ؛

إن زردشت قبل أن يقضي نزل للاغتسال في البحيرة المقدسة فنزلت في مياهها بذرته الخصبة ومن ثمَّ فهو بها وفيها حيّ !

في « البذرة الخصبة » في « البحيرة المقدسة » زردشت حيّ ، وستظل هذه البذرة في البحيرة المقدسة ثلاثة آلاف سنة من بعد زردشت

للحد من مدّ « ميتهرا » أحدث الفقهاء تغييرًا جوهريًا في الدين المزدي فقد أنكروا التثنية إنكارًا باتًا وأعلنوا التوحيد الخالص الذي هَوى بأهريمان من كينونة مستقلة إلى فكرة صيغت على حين غرة من تفكير «مزدا». لقد فكر « مزدا » على حين غرة ! .. فصيغ من تفكيره أهريمان !

فكّر مزدا في نفسه أنه لو كان لي منازع كيف يكون ؟ وهذه الفكرة ردِّية غير مناسبة لطبيعة « النور » فحدث الظلام من هذه الفكرة وسمي أهريمان ! ... ولأن الظلام شر بطبيعته أصبح أهريمان مطبوعًا على الشر والفتنة والفساد والضرر والإضرار فخرج على «النور» وخالفه طبيعة وقولا .

من ثمَّ فإن مزدا هو الإله الأوحد وأن أهريمان ليس خصمًا له وإنما هو خصم روح القدس في مزدا !

وبهذه العقيدة المستمدة من ثنايا القِدَم بدأت تسير الأيام ويد الزمن تطوي الأجيال فتتنشر أحداثًا نشرت دينا باسم المسيحية ، ليس الصدد له مجال ، لتنشر في أعقابه دينًا آخر يطالعنا تحت اسم :

الدين المانوي

إن الدين الذي جاء به « ماني » ، ٢١٦ - ٢٧٥ ، ب . م ، ليس بعابر دين أو بسيط مذهب كما بدأ له تاريخًا ، فهو من أشدَّ الديانات تأثيرًا في العقلية البشرية لأنه يُمثِّل العصارة التي ذابت في مذاهب من بعد وأديان .

في العصر الذي كانت فيه المسيحية [٢] تحاك من مذهب في دين إلى دين عماده «المُخَلِّص» وعمدته « عقيدة الخلاص » ، هذه العقيدة التي وجدت النفس البشرية فيها خلاصًا وتحررًا من قيد الموجة التشاؤمية

ومن ثمَّ فيجب تخليص النفس من قيد الجسد !

ولكن .. إذ ينزع « ماني » هذه النزعة الصوفية فإنه يمتد مغاليًا ويأتي بجديد فهو لا يقف موقفًا سلبيًا فيقتصر فيه على المناداة بوجوب تخليص النفس من الجسم فحسب وإنما يقف موقفًا يراه إيجابيًا فيقول بضرورة إنهاء العالم الماديّ عن طريق إضعاف النوع البشري وإبادة النسل ومن ثمَّ انطلق صوته ناهيًا عن الزواج ...

إن للزواج ثمرًا والحياة إنما أسر فلا تَسْعَ إلى تقييد آخرين بقيودٍ أنت تحاول منها الانطلاق وعليهم لا تَجْنِ !

ولهذه النزعة يُمثِّل « ماني » نفسه مُطالبًا من قد التفَّ من حوله بتطبيقها على أنفسهم فصوته ينطلق مُعلِّمًا أن نفس الامتزاج شرٌّ ومنه يجب الخلاص !.

أجل .. لقد رهب ماني وفي الدنيا زهد زهدًا إيجابيًا فطبّق حياته العملية على هذا المبدأ حيث عاش في «حرّان» وحيث عرفته حرّان راهبًا ليعرفه التاريخ الديني باسم «راهب حرّان» .. وفي حرّان تبعه له تُبَّع رهبوا فترهبوا . ومن ثمَّ فنشأة رهبانية مانوية في حرّان براهب حرّان ... من ثمَّ كان التحوُّل الكليّ في أفق التفكير الديني المانوي عن المذهب الزردشتي القائل بأن الواجب الإنساني ينحصر في الاستجابة الكلية إلى ما تمليه عليه طبيعته الخيرية فيعمل لدنياه عمله لآخرته ، إلى الاقتصار على الآخرة ...

و « براهب حرّان » وبرهبانية حرّان انتشر من « حرّان » هذا الدين، الذي ليس في مداه الحقيقي إلاّ عقائد زردشتية ممسوحة بمسحة المسيحية ، وإن تك المسيحية مازالت نَصيّة وقواعد الكنيسة لم تُوضْع

أيام من كل شهر – وشريعة الصوم تنحصر في أن يمسك الصائم إذا نزلت الشمس الدلو وأما الفطر فعند الغروب ... وفرضت المانوية فريضةً؛

الصلاة

الصلاة في الدين المانوي فريضة تُؤدَّى في مواقيت معلومة وبحركات جسديّة مُعيَّنة من القيام والركوع والسجود .. صلوات أربع في اليوم – الصلاة الأولى عند الزوال والثانية صلاة العصر فصلاة المغرب عقب غروب الشمس ثم بعد المغرب تجيء صلاة العشاء – وكل صلاة تُؤدَّى في اثنتي عشرة ركعة وسجدة ..

ولكل ركعة من الركعات وسجدة من السجدات صيغة معينَّة ومن الكتاب الكريم تلاوة آي أيضًا بطريقة خاصة ولهجة معيّنة ورنة موقعة .. ومن واجب المرء قبل البدء بالصلاة التطهر الجسدي أو المسح بالماء ، كما أن من واجبه الاتجاه في صلاته إلى نفس « القِبْلة » التي اتخذَّها الدين الزردشتي لعبادة المحتجب – من هو « نور على نور » – وهل هناك «قبلة» أجلى وأوضح لعبادة « النور المحتجب » من هذا الينبوع النوري المتدَّفق نورًا هو فيض من فيض « محتجب النور » ؟ !

أجل ... إن المانوية وإن مُسحت بمسحة المسيحية فإنها لا تخرج عن كونها مذهبًا في المزدية إلهها هو « مزدا » وكتابها المقدَّس هو «الزند» فالمانوي ، كالزردشتي ، الزند له مقدس كتاب ومثله هو يعتبره سجلاً منزلا لدين اللّه فإن راهب حرَّان لم يجئ داعيًا إلا إلى مذهب طَبَع الزردشتية فيه بالطابع المسيحي وللدين القديم هو لم يهجر وإن كان قد مزج الزردشتية بالبراهمانيّة الأولى مزجًا كان السبب الذي طبع المانوية بالنظرة التشاؤمية إلى الوجود في نفس الآن الذي طبعتها فيه المسيحية

لرسالته وقد أمرك أن تدعو بحقك فتبشر بشرى الحق من قبلك ... فقد حان لك أن تخرج فتنادي بأمرك »

ومن علائم رسالته أن كان على كتفيه مثل السراجين من نور ، السبب الذي آمن به سابور بين أردشير غداة دَخَل عليه « ماني » فلما رأى ذلك عظَّمه وأدرك أنه حقًا رسول له ما لزردشت من صفة الرسالة الإلهية!..

كلا ، لا يُرغِّب الزردشتية في المانوية من المانوية إيداعها في الوعي الزمني عن «ماني» هذه العقائد بل لها تنفي ولها تعاون ، على نفيها نبوة زردشت ، أصوات أخرى تنساب من أرجاء صرح ذلك الدين الآخر الذي يمتد تياره جارفًا مجترفًا يحمل اسم المسيحية ومحوره نبي آخر جاء بعد زردشت واسمه عيسى وبنبوته أيضًا المانوية تعترف ..

مشكلة تُجابه المانوية وتعترض لها مد - تجاهها أطرق الفقه المانوي طارقًا مطارق التفكير وهدفه ينحصر في تثبيت نبوة « ماني » ، أولا ، أمام المد الزردشتي القديم وبالتالي أمام المد المسيحي الجديد ... وأسعفته مطارق التفكير ببدعة رأى فيها ردًا شافيًا للزردشتية النافية إلا أن هناك نبيًا يأتي بعد زردشت وفي نفس الآن جوابًا مقنعًا للمسيحية فيما قد جعلت الإيمان بعيسى يتوقَّف على الإيمان بماني ...

ومقتنعًا ببدعته هبَّ الفقه المانوي وأرسل من داخل صرحه صوته متئدًا رزينًا رنانًا يُلقي في المسمع الزمني نغمة ما لامست شغاف القلب إلاَّ ورجعتها سويداؤه أصداءً وإلا لتستقر في الوعي الديني الاستقرار الذي به طلعت على دنيا الدين ؛

يبعثه تغنّي المانوية بها إلى حيث راحت بالمانوية ريح النوى وانساب لها أتباع ينشرون هذه العقيدة في أرجاء من الشرق القديم ونواح من شبه الجزيرة العربية ، فقد أحَالَ إلى عقيدة ترديدهم لهذه البدعة وكعقيدة ظلت في الوعي الزمني عالقة كذكرى لم تغب بمغيب « ماني » وعليها لم يسحب الزمن سحب النسيان التي سحبها على « ماني » فقد ظلت في آفاق التفكير الديني الجماعي تهمهم نغمًا شجيًا لايذكر إلاّ التبشير اليسوعي بـ « بار قليط » ولا يردّد إلا أن عيسى قد بشّر برسولٍ من بعده يأتي !

في أرجاء من النفس البشرية تحولّت هذه البدعة إلى عقيدة فقد ظلّت سائدة ناحية كبرى من التفكير الديني الجماعيّ بينما إلى الانغمار في أديان أخرى فالنسيان كانت تسير المانوية ... فلقد سارت بعد أن بلغت على هذه الهضبة السمت الذي رفعها إليه « هرمز » غداة كان لهذه الهضبة عاهلا وغداة « بماني » شغف منه الوجدان فاعتنق مذهبه دينًا بسببه تحولت المانوية من مذهب إلى دين .. وكدين ، لفترة سادت عقيدته هذه الهضبة بينما كانت الدولة، الدولة الساسانية ودينها الرسمي دين زردشت .. ودين زردشت إنما دين قصر اعترافه بالرسالة والنبوة على زردشت ... كنبي ، لأنه جاء في آخر الزمان هو خاتم الأنبياء .

ومن ثمّ فما خلف بهرامُ الأول هرمز إلا وقام مُعبِّرًا عن الشعور المزدي واستجابة للرأي الموبذاني قُتل « ماني » وشرِّد الأتباع ..

ولكن ... لئن قتل « ماني » وشرّد له أتباع ، يُعظِّم عامتهم يوم الأحد وتُعظِّم خاصتهم يوم الإثنين ، وبدأت في لجة الماضي تذوب المانوية فإن تعاليم ماني لم تمت بما كان لدينه من نظام يقوم على :

المانوية ونفيها كما شهد كأثر لها ، في نهاية القرن الخامس الميلادي ، على هذه الهضبة مذهبًا جديدًا باسم :

المذهب المزدكي

بـ « مزدك » ، ومزدك لماني تابع ، انبثق من نيسابور حوالي سنة ٤٨٧ م ، هذا المذهب ليعكس ، النظرة المانوية في الطبيعة وما بعد الطبيعة... كأثر لهذه النظرة كان اتجاه هذا المذهب الديني نفس الاتجاه المانوي حتى ليعتبر امتدادًا للمانوية فقد نادى « مزدك » بالزهد وكانت تعاليمه ترجيع أصداء للمانوية .. ولكن في زمن اضطربت فيه ومنه الأحوال وغيِّمت في آفاقه غيوم الأثرة والاستئثار طلع مزدك وقد راعه التطاحن والقتال المستعر بين طوائف البشرية على ما يفنى ولا يبقى فأراد اجتثاث الداء ... ومن ثم كان انحراف « مزدك » عن «ماني» ، في آرائه الاجتماعية واصطباغ هذه الآراء بصبغة محض دينية تميزت بها تعاليمه التي طلع بها أول نداء على هذه الهضبة ينادي بالاشتراكية .

ولكن ! ..

هذه الاشتراكية التي انطلق من حنجرة « مزدك » عنها النداء إنما قد أُسيء من فهمها المعنى بأتباع استهواهم منها الظاهر دون الجوهر فحسبوها إطلاقًا للغرائز وتحللا من أبسط قواعد الأخلاق ومن ثمَّ ردَّدت حناجرهم النداء باشتراكية مطلقة ما لبثت أن انطلقت محمومة لا تلوي على شيء واندلعت لاهبة فأحرقت الوثائق التي سجلت الأنساب وتحولت معترمة تنادي بالمساواة بين الناس .. وأُلغيت المِلْكية وجُعل المال بين الناس مشاعًا وهذه هي الناحية الاجتماعية التي تهمّنا من هذا المذهب الذي تتابع إلى الدخول فيه أتباع استغلوا هذا المبدأ استغلالاً عجيبًا فقد

وفي أرجاء من شبه الجزيرة العربية لها أثرها في التاريخ الديني توغلا فكما يحدثنا للإسلام تاريخ نرى أن الزندقة قد تفشّت ، قبيل الإسلام ، في قريش وأن المجوسية قد خضّبت «تميم» حيث منها طلع أبو بكر أول الخلفاء الحامل لقب «الصدّيق»...

وهنا ! .. هنا يجب أن نتنبه إلى نقطة خطيرة لها أهميتها في تاريخ التفكير الديني إذ تطالعنا باللغة الفارسية كلمة « زندق » ونفهمها كلمة في الأصل كانت من معانيها التابع «الزند» تُطلق وأنها على تابع « الزند » ومن ثمّ نفهم أن الزندقة إنما نعت لا يُعني قطّ الحيدة ولا يُرادف معنى المروق وأن استعماله في معنى الإلحاد على العموم إنما هو معنى حدث بعد ، فليس النعت إلاّ نعتًا لأتباع وأهل كتاب مقدس بل « منزل » يحمل اسم «الزند» وليست الزندقة إلا تسمية كانت لأتباع الزند ! ...

أجل ... بهذه الألوان من العقائد والفِكَر خضب للشرق القديم تفكير بزحف الظل السياسي الإيراني الذي ظلت المزدية الزردشتية له دينًا رسميًا وقف في مهبٌ العواصف سيدًا لكل ما قد عرفته هذه الهضبة من اتجاهات دينية ومذاهب .. وسيدًا سائدًا ظلّ الدين الزردشتي يشهد قيام دين بعد دين ، كأنّه قد رسخ على صفحة الزمن وكأنه لا يرى لشمسه من النفس البشرية غروبًا ، فالفترة إنما الفترة التي سجل فيها الزمن على هذه الهضبة :

تلاشي المذاهب طرًا ورسوخ الدين الزردشتي

وتغلغله بعقائده حتى الاحتلال السياسي الإسلامي

منذ أشرقت على صفحة التاريخ السياسي الدولة الساسانية والدين الزردشتي شمس تنير أرجاء التفكير الديني لهذه الهضبة

إلى أرض غيرها فولّت وجهها شطر تلك السفوح حيث فيها استقرت ولكن ليستقر معها في غير استقرار دينها فقد تبدّلت مبادئه ومنه قد تصدّع الجوهر كما بالواقع يطالعنا لذلك السلف الخلف الذي نعرفه في الهند الحاضرة بطائفة الـ « بارسي » ..

وفئة لم تأبه لهذا الاستعمار السياسي مادام في حقيقته للعقيدة الدينية لم يتناول ولا يفرض عليها ، إزاء تمسكها بالاعتراف بالنبوة والرسالة لزردشت ، فرضاً إلا الجزية ... هذه الفئة ظلت تعيش بعد الفتح الإسلامي على هذه الهضبة حيث استمرّت المعابد القائمة تحت اسم «بيوت النار» قائمة تشتعل فيها النيران رمزًا « للنور المحتجب » وتذكرة بالصلاة ، خلال القرون الثلاثة الأولى التي أعقبت هذا الفتح ، من هذا السلف مازالت قلّة تعيش حتى اليوم في « كرمان » وفي « يزد » ..

وفئة رأت أن مناصب الدولة قد غدت وقفًا على الفاتحين وأنها قد انفسحت أمام من انخرط في سلك هذا الدين الجديد .. وتلفتت فرأت أن الإسلام لم يأتها بجديد ! لها بدا إنما الجوهر من الدين المزدي الجوهر من الإسلام ، فالإله الخير من بلغتها تناديه « مزدا » ، إنما نفسه الذي تناديه العرب بلغتها « اللّه ».

وعلى عقائدها استدارت هذه الفئة فتراءى لها أن للإسلام عقائد تبدو كأنها رَجْع الصدَى لما لديها من عقائد فإن البعث الجسديّ البعث الجسدي ! .. والحساب الحساب ! . والصراط الصراط، والثواب والعقاب الثواب والعقاب ! فالجحيم بظلماته الجحيم ، والبردوس، والفاء تقلب في الفارسية عادة بباء ، الفردوس ، كما أن الفردوس في الإسلام أعلى من الجنة مطلبا ونهاية النعيم !

الدينين إلا الاسم وإلا ما يعود عليها في أمور المعاش بالمشكلات فأعلنت اعتناقها ، دينًا ، الإسلام!.

وهكذا ... هكذا غاب في أتباع القرآن للزند أتباع وُطوِيَ كتاب في منتشر كتاب . وهكذا غاب الزردشتيون في المحمديين وهكذا غيِّب محمد ظل زردشت ..

في « رسول » من حرارة الأنفاس منه مازالت ملتهبة للوجدان أجواء غاب رسول باعدت بينه والعهد عهيد عهود ... ومن حول المقام المرمريِّ القائم في « ناكشي رستم » تهب للزمن أنفاس تتردد في صدر التاريخ هامسة ؛

إن هنا يثوي زردشت ومعه ثاوية أصول دين منزلته في سجل الديانات كانت منزلاً .. هنا يغيب « رسول » ذكرى رسالته مطوية في أحضان بلخ وأذربيجان وذكرى الإسراء إلى السماء بذكراه مصحوبة ..

وهنا .. هنا نُسي « نبي » ، لاح لأتباعه أن سَحَرَ الزمن مغرب فآمنوا به نبي آخر الزمان، أمام ذكرى « نبي » يؤمن حتى اليوم له أتباع بأنه نبي آخر الزمان .. وهنا . هنا غفا في جفن الماضي رسول حرَّم الغزو والسلب وسكتت خفقات قلب دينٍ نبضاته الخير لسيف نشر دينًا يقف حتى اليوم عالميًا !